الدكتور محمد جلاء إدريس

١٧

صورة الإسرائيلى فى التوراة

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ / ٢٠٠٤م

يطلب من

مكتبة الآداب

٤٢ ميدان الأوبرا - القاهرة

ت: ٣٩١٩٣٧٧ - ٣٩٠٠٨٦٨

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ صدق الله العظيم

المائدة (٦٤)

الفهرس

مقدمة

هناك قضايا لابد من إيضاحها بداية، وقبل الخوض فى غمار معالجة موضوع هذه الدراسة، كما أن هناك مصطلحات ينبغى أن نبين المقصود منها، حتى نكون على بينة من أمرنا. فالحديث عن الشخصية بوجه عام أمر ليس بيسير، والحديث عن الشخصية الإسرائيلية بصفة خاصة، أمر أشد وطأة، إذ أننا - وهذا نعلمه مسبقاً - لن نرضى كثيراً من الأطراف.

فالحديث برمته لن يروق لأصحابه المعنيين، من الإسرائيليين ومن والاهم، ومن ثم فنحن فى نظرهم : متطرفون، وإرهابيون ولا ساميون.

كما لن يرضى فريق آخر عن تحديد مصطلح الشخصية الإسرائيلية، حيث ينفى هؤلاء وجود مثل هذه الشخصية، وبالتالى سينكرون علىّ استخدام هذا المصطلح وتوابعه، فليس هناك شخصية إسرائيلية، ولا شعب إسرائيلى، ولا مجتمع إسرائيلى.

وبعض المتخصصين فى علم النفس يرفضون منهجى هذا، ونفى عدد منهم فى لقاءات جدلية، وجود ما يسمى بالشخصية على الإطلاق.

وبعيداً عن فذلكة المتخصصين، ومجادلة المجادلين، أود فى البداية أن أوضح هدفى من هذه الدراسة، بعدها فليأخذ هؤلاء ما يرونه مناسباً لوجهات نظرهم، وليلقوا بما تبقى لآخرين قد يروقهم ويبصرهم ما يجدونه مسطراً فى ثنايا هذه الصفحات.

إن المعرفة العلمية بالواقع الإسرائيلى وبالإنسان الإسرائيلى - كما يراها الدكتور رشاد الشامى ونحن معه [1] تصبح مطلباً ومسئولية تقع على كاهل فريق من الدارسين والباحثين العرب الذين يهتمون بدراسة هذا الواقع وأصحابه.

ومهمة المتخصصين فى الدراسات العبرية من بين هؤلاء الدارسين بصفة خاصة هى تقديم المعرفة الصحيحة التى تعتمد على أسس علمية، وفى إطار صحيح من المعرفة والتفسير والتنبؤ.

فهدفنا هنا، يتفق مع هدف الدكتور قدرى حفنى من دراساته النفسية التى قام بها لفهم الشخصية الإسرائيلية [2]، وهو : «محاولة تحقيق أكبر قدر من الفهم العلمى الموضوعى» لهذه الشخصية.

فنحن نسعى هنا إلى التوصل إلى العوامل السيكولوجية الأساسية التى تحدد سلوكيات رجل الشارع الإسرائيلى، وإن كنا ندرك أننا لن نجد رجلاً واحداً فى هذا المقام، بل لن نجد مجموعة واحدة، وإنما مجموعات شتى.

ولست بدعاً فى هذا المجال.

ففى إطار الدراسات العربية التى عنيت بدراسة الإسرائيلى، نجد أعمالاً قيمة سابقة، منها كتابات الدكتور قدرى حفنى، والدكتور رشاد الشامى، ودراسة سابقة لى قارنت فيها الشخصية اليهودية - وقد نستخدم اليهودية والإسرائيلية كمرادفين فى هذا المقام - فى الأدبين الإنجليزى والعربى، بهدف الوصول إلى سمات وملامح عامة لهذه الشخصية.

وللدكتور حسن ظاظا دراسة قيمة عن الشخصية الإسرائيلية، نشرتها دار القلم بدمشق عام ١٩٩٠.

١- رشاد الشامى، الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية، عالم المعرفة (١٠٢)، الكويت، ١٩٨٦، ص ٥.

٢- قدرى حفنى، الإسرائيليون : من هم ؟ دراسة نفسية، مكتبة مدبولى، القاهرة، ١٩٨٨، ص ١٣.

وهناك كذلك دراسة للدكتور رمسيس عوض بعنوان صورة اليهودى فى الأدب الانجليزى، كتاب الهلال العدد ٥٧٩، القاهرة، ١٩٩٠.

ناهيك عن رسائل علمية جيدة، أعدت حول هذا المضمون، منها رسالة ماجستير - بإشرافى - كان عنوانها : الشخصية اليهودية عند كتاب الرواية والمسرحية فى مصر قام بإعدادها الباحث محمد بسيونى عبد الفتاح، وتمت إجازتها من قسم اللغة العربية بآداب طنطا عام ١٩٩٥. وهناك رسالة أخرى بعنوان صورة اليهودى فى المسرح العربى فى مصر، رسالة دكتوراه غير منشورة، أعدها الباحث فوزى ابراهيم الحاج، كلية الآداب جامعة عين شمس، ١٩٩٨.

وفى إطار الدراسات غير العربية عن الشخصية اليهودية أو الإسرائيلية وجدنا أعمالاً عالجت هذه القضية فى الكتابات الإنجليزية. (١)

وعلى الجانب المقابل - وأعنى الجانب الإسرائيلى - راج هذا النوع من الدراسات والبحوث، إذ اهتم قطاع من الباحثين الإسرائيليين بدراسة المجتمع العربى والشخصية العربية بعامة، والفلسطينية على وجه الخصوص. وتنتشر «أوصاف العربى» فى تلك الكتابات والبحوث الإسرائيلية التى تصدر عن مراكز بحثية أنشئت خصيصاً لهذا الغرض.

وفى هذا المقام أحاول من خلال استقراء النصوص العبرية المقدسة فى العهد القديم كله (وهو ما نطلق عليه التوراة مجازاً) كى نستكشف معاً أبعاد الشخصية الإسرائيلية كما وصفها وحدد معلمها الكتاب المقدس عند اليهود والنصارى، حيث لا يمكن اتهام نصوص هذا الكتاب بالمعاداة لليهود، فهى من صنعهم ووضعهم، وحرى بنا أن نعتمدها مرجعاً لأصحابها.

١- انظر مثلاً : Fisch, H, The Dual Image : The Figur of the Jew in English and American Literature, London 1971, Montagu, F., The Jew in the Literature of England, Philadelphia, 1939.



إشكاليات دراسة الشخصية الإسرائيلية

تفجر دراسة الشخصية الإسرائيلية مجموعة من الإشكاليات المعقدة، نحاول فى هذا المقام استجلاء أبعادها بشكل موجز على النحو التالى :

إشكالية دراسة التاريخ الإسرائيلى :

تنقسم دراسات الشعوب بشكل عام إلى قسمين :

الأول : الدراسة عن قرب.

الثانى : الدراسة عن بعد.

ودراستنا هنا تنتمى إلى القسم الثانى، ونعنى بها دراسة ذلك المجتمع الإسرائيلى دون أن نحاول الاقتراب منه. وهذا النوع من الدراسات له أساليب وطرق منها : [1]

١- أسلوب دراسة التاريخ.

٢- أسلوب دراسة العنصر البارز.

٣- دراسة الإنتاج الأدبى.

٤- تحليل مضمون الاتصال.

٥- دراسة المقترنين.

١- حفنى قدرى، مرجع سابق، ص ١١٦ - ١٣٠

٦- دراسة المنعزلين.

٧- دراسة التراث.

وأظن أن منهجنا هنا يعتمد على الأسلوبين الأول والأخير - وأعنى دراسة التاريخ الإسرائيلى ودراسة التراث ممثلاً فى أسفار العهد القديم - حيث لم أجد أنسب من دراسة وتتبع تاريخ الإسرائيليين وتراثهم من مصادره المعتمدة لديهم والتى لا تقبل - عندهم - أدنى درجات التشكيك.

ودراسة من هذا القبيل، تعطينا معرفة لا بأس بها بما جرى داخل هذه الجماعات وما يجرى الآن، بل تسهم فى التنبؤ بما يمكن أن يقع مستقبلاً، وذلك من خلال تصورنا لامتدادات ماحدث فى التاريخ من قبل، وهذا بدوره يسهم فى وضع تصور لسيكولوجية الإسرائيلى.

والتزاماً بالموضوعية، أشير هنا إلى اعتراضات البعض على هذا الأسلوب، تلك الاعتراضات التى تركزت فى نقطتين مهمتين هما :

* إن التاريخ لا يسير فى خطوط مستقيمة، ومن ثم لا يمكن الاعتماد على التاريخ وحده، ومهما بلغت دقة دراسة هذا التاريخ، فإن احتمالات المستقبل المستخلصة منه لن تكون على قدر كاف من الدقة.

* يؤدى هذا الاسلوب إلى حالة من التضليل، وبخاصة فى حالة محاولة تطبيقه لفهم المجتمعات حديثة التكوين أو ما يسمى بالمجتمعات المصنوعة - كإسرائيل فى حالتنا هنا - إذ أن ذلك يؤدى إلى تسليم الباحث ابتداء بأن ذلك المجتمع قد صُنع تاريخه كمجتمع، ومن ثم ينزلق إلى محاولة «اصطناع» تاريخ لذلك «المجتمع المصنوع»، وافتراض وجود امتداد تاريخى قديم لهذا المجتمع المعاصر.

والحقيقة أن هذه القضية كثيراً ما تجابه الباحثين فى الدراسات الإسرائيلية حين يثير البعض مقولة أن ليس ثمة علاقة بين إسرائيل الحالية «المصنوعة» وإسرائيل القديمة «المندثرة».

ومما لاشك فيه أن غالبية القاطنين فى المجتمع الإسرائيلى المعاصر «المصنوع»، لا تربطها علاقة بالمجتمع الإسرائيلى القديم «المندثر»، ولكننا هنا أمام ظاهرتين لا ينبغى التغاضى عنهما :

الظاهرة الأولى : إن هناك مجموعات - لا بأس بها - تعيش داخل هذا المجتمع الإسرائيلى المعاصر «المصنوع»، تعد امتداداً للأصول الأولى، وتشهد على ذلك دراسات تاريخ الأمم والشعوب، وربما لو استرشدنا بالدراسات الانثروبولوجية المحدودة لتأكدنا من صدق زعمنا هذا إلى درجة كبيرة.

فالجالية اليهودية الإسرائيلية العراقية التى تعيش الآن فى هذا المجتمع المصنوع، قد عاشت فى بابل على مدى قرون لم تختلط فيها بشعوب الأرض، وأظنها - وقد أكون مخطئاً - امتداداً لهؤلاء الإسرائيليين المنفيين من فلسطين إلى بابل فى القرن السادس قبل الميلاد.

هذا نموذج واحد، قد ينطبق على مجموعات أخرى يمكن دراسة تاريخها من خلال تاريخ تلك الشعوب التى عاشت بين ظهرانيها.

أما **الظاهرة الثانية** التى ينبغى أن نلفت النظر إليها، فهى أن جماعات عديدة داخل هذا المجتمع «المصنوع»، قد ارتضت لنفسها تاريخ إسرائيل، وتشبعت به. نعم هناك اختلاط واندماج تم بين الإسرائيليين القدماء والأمم الأخرى، ولكننا على يقين من أنه برغم عدم «النقاء العنصرى» لهذه الجماعات الإسرائيلية، إلا أنها قد حافظت - بدرجة كبيرة - على التمسك بالتاريخ، والسير على هديه ومنهجه.

نقاء العنصر إذن أمر فيه شك، ليس فيما يتعلق بالإسرائيليين وحسب، بل بغيرهم من الأمم والشعوب كذلك.

لكن «الانحياز التاريخى» أمر - فى اعتقادنا - نراه بوضوح فى تلك الجماعات على مر التاريخ.

والعهد القديم بأسفاره الممتدة، يخبرنا بعدم النقاء العنصرى حيث الاختلاط بالأمم الأخرى - وإن خالفوا بذلك شرائع الرب - لكنه كذلك يقدم لنا صورة واضحة من «الانحياز التاريخى» لهؤلاء المندمجين أو المختلطين.

وكثير من الشعوب المعاصرة، اندمج عرقياً واختلط بغيره من الشعوب، لكنه مازال يلتزم جانب الانحياز التاريخى إلى أصوله التراثية.

وأعتقد أن التجمع الإسرائيلى حول «العهد القديم» فى شتى بقاع العالم - وإن لم يكن الالتزام به شرطاً - قد أسهم فى ذلك «الانحياز التاريخى» المشار إليه.

وعليه، فإننا قد نشكك فى امتداد وجود عرقى لما يسمى بإسرائيل، لكننا قد نجد درجة من اليقين فى زعمنا بأن هذا الخليط العرقى قد التزم فى القديم بتاريخه، وقد التزم فى الحديث بتاريخ السابقين، فى محاولة لإيجاد هوية - وإن كانت مصطنعة - فى عصر الهويات والتكتلات القومية والوطنية.

هذه مجرد وجهة نظر، اعترف بأنها قابلة للتغيير والتبديل، إذا ما وجدت من البراهين والأدلة ما يمكن أن يقنع بالتغيير والتبديل.

إشكالية مفهوم الشخصية:

تعددت تعريفات ومفاهيم مصطلح الشخصية بين الباحثين والدارسين، فالشخصية الإنسانية - بوجه عام - هى «محصلة ذلك التفاعل المستمر بين طبيعة الإنسان وبين العوامل الاجتماعية والثقافية والبيئية المختلفة» [1] وعلى هذا النحو، فإن أبرز جوانب هذه الشخصية وضوحاً وأهمها هو الجانب الاجتماعى منها.

أما مفهوم الشخصية فهو ما «يصف الفرد من حيث هو وحدة متكاملة من الصفات والمميزات الجسمية والعقلية والاجتماعية والمزاجية التى تبدو فى تعامله وعلاقاته

١- مصطفى فهمى، الشخصية فى سوائها وانحرافها، مكتبة مصر، القاهرة، د.ت، ص ٧.

الاجتماعية فى المواقف المختلفة والتى تميزه عن غيره من الأفراد تمييزاً واضحاً. فهى تشمل دوافع الفرد، وعواطفه، وميوله، واهتماماته، وسماته الخلقية، وآراءه، ومعتقداته، واتجاهاته، كما تشمل عاداته الاجتماعية، وذكاءه، وقدراته، ومواهبه الخاصة، ومعلوماته، وما يتخذه من أهداف ومثل وقيم اجتماعية، ومن فلسفة واتجاه فى الحياة».[1]

وجدير بالذكر أن هناك موضوعات هى بمثابة صفات للشخصية، وذلك مثل الأمانة والصدق والشجاعة، والعدل ....، وعواطف المرء التى تتكون تجاه هذه الموضوعات المجردة من حب وكراهية، أو ميل ونفور، هى جوهر التقاليد الخلقية، وهى كذلك أهم ما تتصف به الشخصية، وأثمن ما يمتلكه الإنسان.

أما كيفية تكوين هذه العواطف فترتبط بالتقاليد الاجتماعية التى تورث من جيل إلى آخر حتى تتحول إلى صفات خلقية سائدة، ومن ثم فهى لا تتكون بمعرفة الفرد عن قومه، وإنما هى نتيجة لمشاركة الآخرين فى أفعالهم وأعمالهم، الأمر الذى يسهم بدوره فى نمو هذه العواطف الموجهة تجاه الموضوعات المجردة.

وطبيعى أن نجد لدى كثير من الأفراد عاطفة تسيطر على سائر العواطف لديهم، وتوجه - بالتالى - سلوكهم، وتعرف هذه العاطفة بالعاطفة السائدة، كأن يسيطر حب إنسان ما للمال على سائر سلوكه، أو حبه للبطش والفتك على كل نهج ينتهجه فى حياته، وهنا يحق لنا أن نقول : إن العاطفة السائدة عند الأول هى حب المال، وعند الثانى هى حب الدماء، وهكذا.

ولا يختلف علماء النفس - بوجه عام - على أن شخصية المرء تتطور فى الإطار الاجتماعى والثقافى الذى يحيا بداخله ويتفاعل مع عناصره. فهناك استعدادات معينة متعددة يولد بها الفرد، استعدادات جسمية ونفسية وعصبية تبلورها سائر المؤثرات الموجودة فى بيئته.

١- المرجع السابق، ص ١٢.

فالشخصية - على هذا النحو - تنظيم متكامل من الصفات والميزات بالإضافة إلى التركيبات الجسمية والانفعالية والعقلية والاجتماعية التى تظهر فى علاقات الفرد الاجتماعية وتميزه عن غيره من الأفراد بوضوح. (١)

وبناءً على ما سبق فإن مفهوم الشخصية يشمل دوافع الفرد وانفعالاته، وعواطفه وميوله، واهتماماته، وسماته وآراءه ومعتقداته، بل يشمل كذلك عاداته وقدراته العامة والخاصة، وما يتخذه من أهداف ومثل وقيم اجتماعية، وتنظيم ذلك فى كل متكامل، متسم بالانتظام والتناسق. (٢)

وهى - وفقاً لما سبق كذلك - تمكننا من التنبؤ بما سوف يفعله الشخص فى موقف معين (٣)، وهنا تكمن أهمية دراسة الشخصية الإسرائيلية.

فالشخصية - وإن كانت مصطلحاً مجرداً - فهى ترمز إلى أنماط السلوك التى ينتهجها الإنسان تجاه مواقف الحياة المختلفة، بل هى - كما يرى علماء النفس - الجهاز المحدد للسلوك. (٤)

وهناك عنصر بالغ الأهمية فى الشخصية، ألا وهو تلك التوجهات القيمة للفرد، إذ تعد هذه التوجهات من عناصر البنية الداخلية للشخصية، وكل توجهات قيمية ترتبط بالتجربة الحياتية للمرء ويكامل معاناته.

أما مجموع هذه التوجهات القيمية للشخصية الفردية، فيحدد بعض صفات الفرد كوحدة الكيان والمصداقية والوفاء لمبادئ معينة، والقدرة على الكفاح من أجل هذه القيم

١- مصطفى فهمى، علم النفس الاكلينيكى، مكتبة مصر، القاهرة، ١٩٦٧، ص ٥٦.

٢- سيد عبد الحميد مرسى، الشخصية السوية، مكتبة وهبه، القاهرة، ١٩٨٥، ص ١٣.

وانظر أيضاً : أحمد عزت راجح، أصول علم النفس، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٥، ص ٤٥٧.

٣- Caltel, R., Personality : A Systematic Theoretical, and Factual study, New York, Mc. Grawhill, 1950, p. 302.

٤- صلاح مخيمر، المفاهيم والمفاتيح فى علم النفس، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨١، ص ١٨١.

والمثل. وفى هذا الإطار يمكننا أن نلاحظ أن تطور هذه التوجهات القيمية لدى الفرد دليل على نضوج شخصيته، ومؤشر يبين لنا مدى صفتها الاجتماعية، وعلى العكس، فإن تخلف هذه التوجهات يدل على تخلف نضوجها، وتسلط الحوافز الخارجية على البنية الداخلية لشخصية الفرد. (1)

ومن المعلوم أن الشخصية الفردية ليست مما يولد فجأة فى الحياة، وإنما هى نتاج تطور تاريخى طويل، أى أنها ظاهرة اجتماعية.

كما أننا ندرك أن هذه الشخصية عند تفاعلها مع العالم تفاعلاً نشيطاً، تعتمد فى ذلك على عقيدتها الذاتية.

والعقيدة غير قابلة للانفصال عن نشاط الإنسان، فهى منظومة آرائه فى العالم، وهى مجموع قناعات ومثل البشر : العلمية والفلسفية والأخلاقية والدينية والجمالية. فالعقيدة هى «لب الفرد ونواته التى تتجسد فيها مبادئه وأفعاله ومثله وأهدافه الحياتية». (2)

أساس العقيدة إذن هو علاقة الإنسان بالعالم، ومن ثم نجد العقيدة رفيقاً إيجابياً لصاحبها، فهى توجهه وترشده وتربيه، ولذلك فإن العقيدة إذا انطلقت من فهم صحيح للعالم تصبح أساساً قوياً لتغيير العالم تغييراً معقولاً، أما إذا كانت هذه العقيدة خاطئة، فتصبح عندئذ عائقاً كبيراً يعترض طريق شخصية الفرد.

لقد تعمدت أن أقدم بالسطور السابقة التى تبين بوضوح أثر العقيدة على سلوك الشخصية للارتباط الشديد بين هذه القضية وموضوع دراستنا. فالعقيدة اليهودية، كانت الأساس الذى تمحور حوله بناء الشخصية اليهودية، إذ حددت لها كثيراً من عناصرها ومكوناتها مثل توجهاتها القيمية، وعلاقاتها بالعالم المحيط بها.

١- كيريلينكو، كورشونوفا، ما هى الشخصية، دار التقدم، موسكو، ١٩٩٠، ص ١٨٨ - ١٨٩.
١- المرجع السابق، ص ١٨٠ - ١٨١.

لقد كانت العقيدة اليهودية رفيقاً - بغض النظر عن تقويم هذا الرفيق - لأتباعها خلال تاريخهم، إذ كانت الموجهة والمرشدة والمربية لهم، ويتضح هذا من النصوص التى سنعرض لها خلال هذه الدراسة.

كما شكلت العقيدة اليهودية بالفعل منظومة آراء الفرد الإسرائيلى فى العالم، وكانت عاكسة بصدق لمجموع قناعاته ومثله العلمية والفلسفية والأخلاقية والدينية والجمالية.

لهذا كله، كان تركيزى فى هذه الدراسة على استكشاف كنه الشخصية الإسرائيلية من خلال جوهر عقيدتها، ألا وهو كتاب العهد القديم.

إشكالية الجماعة الإسرائيلية :

هل يشكل الإسرائيليون جماعة ذات سيكولوجية عامة تميزهم من غيرهم من الجماعات الإنسانية التى عرفتها البشرية ؟!

قد يتجمع عدد من الناس - تحت أية ظروف - ويكون بينهم تفاعل بشكل ما، من أجل تحقيق هدف أو أهداف معينة، وتتحدد لهؤلاء الناس - من خلال تفاعلهم هذا - أدوار اجتماعية، وتكون لسلوكهم ضوابط ومعايير قيمية خاصة. يمكننا عندئذ أن نقول إن هؤلاء يؤلفون جماعة اجتماعية a social group، هى بمثابة وسيط اجتماعى يقوم بدوره فى التنشئة الاجتماعية لأفراده، و«التطبيع الاجتماعى»، ومنه تستمد اتجاهات هؤلاء الأفراد، ويتواصل انتماؤهم له وتكيفهم مع ظروفه وأحواله.

والجماعة هنا هى التى تقوم بإشباع حاجات أفرادها من جانب، كما يتحقق من خلالها الأمن والأمان لهؤلاء الأفراد، كما تتحقق من خلالها كذلك مكانتهم الاجتماعية، وبالتالى ينشأ اعتزاز الأفراد بهذه الجماعة، ويكون ولاؤهم لها.

ويحدد لنا الدكتور - عبد المنعم الحفنى - [1] بعض أنواع للجماعة مثل :

١- عبد المنعم الحفنى، الموسوعة النفسية، مكتبة مدبولى، القاهرة، ١٩٩٥، ص ٣٥٨.

الجماعة الاختيارية Voluntary group ، وفيها يكون اجتماع أصحابها عن اختيار وإرادة منهم.

والجماعة الجبرية Involuntary group ، وهى التى لا إرادة لأصحابها فى اختيار بعضهم البعض.

وقد تكون **الجماعة مغلقة** Closed group

وقد تكون **الجماعة مفتوحة** Open group

وجماعتنا هنا - الإسرائيلية - هى جماعة جبرية، اختارها الرب، ولم يختر أفرادها هذا التجمع، وهى جماعة مغلقة، حسبما تشير نصوص التوراة.

والعهد القديم ينقل لنا السلوك الجمعى للجماعة متمثلاً فى سلوك أفرادها أو سلوكها ككل متجاوزاً سلوك الأفراد ، ويمكن من خلال ذلك أن نقف على اتجاهات عقل الجماعة group mind الذى يعكس أفكار بنى إسرائيل الجمعية وأيديولوجيتهم التى تصدر الجماعة من خلالها آراءها واعتقاداتها.

إشكالية الشخصية القومية الإسرائيلية :

يحدد باخ الشخصية القومية بأنها الطبيعة الروحية الخاصة لشعب من الشعوب، وهذا التعريف يتفق فى كثير من معانيه مع تعريف كاردنر للشخصية الأساسية التى يعنى بها ذلك الشكل من الشخصية المشترك بين السواد الأعظم من أبناء المجتمع، نتيجة خبراتهم السابقة المشتركة. [1]

فالشخصية الأساسية إذن تتشابه فيها الأنماط الاجتماعية والسلوكية، ولها خصائص تنتقل من جيل إلى جيل، تتخذ طابع الثبات فى الجماعة.

١- ايكه هولتكرانس، قاموس مصطلحات الاثنولوجيا والفولكلور، ترجمة محمد الجوهرى، دار المعارف، ١٩٧٢، ص ٢٢٧ -٢٢٨، نقلاً عن : سناء عبد اللطيف صبرى، ملامح الشخصية اليهودية وطبائعها كما تصورها فكاهاتهم، دار القلم، دمشق، ١٩٩٩، ص ١٥.

والشخصية القومية - بناءً على ما سبق - نعنى بها تلك الصفات السلوكية التى ترتبط بالفرد لمجرد انتمائه إلى مجتمع معين. (١)

وعلى هذا الأساس، هل يمكن الحديث عن شخصية قومية إسرائيلية؟ أعنى عن شخصية ذات صفات سلوكية تميزها عن غيرها من المجتمعات ؟

من وجهة نظرى، بإمكاننا العثور على شخصية إسرائيلية قومية، سجلت لنا سلوكياتها أسفار العهد القديم على نحو ما سنعرض فى ثنايا هذه الدراسة. نعم، كثير من السلوكيات المستخلصة من هذه الأسفار، تشترك فيه شعوب وأمم أخرى، ولكن أغلب الظن، أن مجموع هذه السلوكيات، يصعب الوقوف عليه، فى المصادر المتاحة لدينا لدراسة أنماط الشخصيات العالمية فى شخصية واحدة.

ليس هذا من ضروب المبالغة. فلو أخذنا بنفس منهج هذه الدراسة، أعنى دراسة التاريخ، واعتمدنا على مصادر مقدسة موثوق بها من قبل أصحابها ثقة كاملة، كالقرآن بالنسبة للمسلمين، والإنجيل بالنسبة للنصارى ومنوسمرتى بالنسبة للهندوس وغيرها من الكتب التى تنبئنا بجانب بارز من تاريخ أصحابها ومعتنقيها، لو أخذنا هذه النماذج، قد نجد فى بعضها إشارات إلى سلوكيات أصحابها، لكننا لن نجد قطعاً تلك المجموعة المتكاملة التى ترسم أبعاد شخصية أصحابها رسماً تاماً وكاملاً.

بعد الإيضاح السابق لأبعاد هذه الدراسة وإشكاليات مصطلحاتها، من الأنسب أن نغوص فى أعماق أسفار العهد القديم، نستقرئ النصوص معتمدين على الوصف والتحليل، ثم ننتهى إلى تركيب أجزاء الصورة التى جاءت مفرقة فى ثنايا الكتاب المقدس، وقد آثرت أن يكون عنوان هذه الدراسة : الشخصية الإسرائيلية فى التوراة، لا فى العهد القديم حتى لا يحدث لبس لدى القارئ العادى، على أن يكون استخدامى للفظ «التوراة» هنا من قبيل «إطلاق الجزء على الكل».

وإنى لعلى يقين من أننى سأستفيد - كما قد يستفيد غيرى - من نتائج هذه الدراسة فى معرفة الشخصية الإسرائيلية، والتنبؤ بما يمكن أن يكون من سلوكياتها فى المستقبل، مستقبل الود والسلام، أو مستقبل العداء والخصام.

٢- سناء عبد اللطيف صبرى، المرجع السابق، ص ٢٦.

الفصل الأول

الشخصية الإسرائيلية في التوراة

وصف عام



الشخصية الإسرائيلية فى التوراة
وصف عام

قدمت لنا بعض أسفار العهد القديم وصفاً عاماً، وخطوطاً عريضة للشخصية الإسرائيلية، أو ما يمكن أن نطلق عليه الأبعاد العامة لهذه الشخصية، إذ لم تركز - مثل سائر الأسفار - على مواقف بعينها، وإنما قدمت لنا إطاراً عاماً جمع - فى رأيى - ما جاء مفصلاً فى سائر أسفار العهد القديم.

وسأعرض فى هذا المقام لنوعية من تلك النصوص، ثم نحللها لنخرج بجزئياتها، حتى نتمكن من رسم الملامح الدقيقة لهذه الشخصية.

جاء فى سفر إشعياء ١/٢ - ٢٠ ما نصه :

اسمعى أيتها السموات وأصغى أيتها الأرض لأن الرب يتكلم. ربيت بنين ونشأتهم. أما هم فعصوا على. الثور يعرف قانيه والحمار معلف صاحبه. أما إسرائيل فلا يعرف. شعبى لا يفهم. ويل للأمة الخاطئة الشعب الثقيل الإثم نسل فاعلى الشر أولاد مفسدين. تركوا الرب استهانوا بقدوس إسرائيل ارتدوا إلى وراء. علام تضربون بعد. تزدادون زيغانا. كل الرأس مريض وكل القلب سقيم. من أسفل القدم إلى الرأس ليس فيه صحة بل جرح وأحباط وضربة طرية لم تعصر ولم تعصب ولم تلين بالزيت. بلادكم خربة. مدنكم محرقة بالنار. أرضكم تأكلها غرباء قدامكم وهى خربة

كانقلاب الغرباء. فبقيت ابنة صهيون كمظلة في كرم كخيمة في مقثأة كمدينة محاصرة. لولا أن رب الجنود أبقى لنا بقية صغيرة لصرنا مثل سدوم وشابهنا عمورة. اسمعوا كلام الرب يا قضاة سدوم. أصغوا إلى شريعة إلهنا يا شعب عمورة. لماذا لي كثرة ذبائحكم يقول الرب. اتخمت من محرقات كباش وشحم مسمنات. وبدم عجول وخرفان وتيوس ما أسر. حينما تأتون لتظهروا أمامي من طلب هذا من أيديكم أن تدوسوا دوري. لا تعودوا تأتون بتقدمة باطلة. البخور هو مكرهة لي. رأس الشهر والسبت ونداء المحفل. لست أطيق الإثم والاعتكاف، رؤوس شهوركم وأعيادكم بغضتها نفسي. صارت على ثقلاً. مللت حملها. فحين تبسطون أيديكم أستر عيني عنكم وإن كثرتم الصلوة لا أسمع. أيديكم ملآنة دماً. اغتسلوا تنقوا اعزلوا شر أفعالكم من أمام عيني كفوا عن فعل الشر. تعلموا فعل الخير. اطلبوا الحق انصفوا المظلوم اقضوا لليتيم حاموا عن الأرملة. هلم نتحاجج يقول الرب. إن كانت خطاياكم كالقرمز تبيض كالثلج. إن كانت حمراء كالدودى تصير كالصوف. إن شئتم وسمعتم تأكلون خير الأرض. وإن أبيتم وتمردتم تؤكلون بالسيف لأن فم الرب تكلم.

قبل أن نخوض في التعليق على الفقرات السابقة من سفر إشعياء، من الأوقع أن نحصي ونحدد ملامح الشخصية الإسرائيلية العامة التي يمكن رسمها على النحو التالي :

١- نكران الجميل.

٢- الغباء والجهل.

٣- إدمان ارتكاب الشرور والمفاسد.

٤- الـردة.

٥- الزيغان عن الحق.

٦- حب الدماء.

٧- عدم فعل الخيرات.

مقدمة الفقرات تستهل بهذا النداء : «اسمعى أيتها السموات واصغى أيتها الأرض لأن الرب يتكلم».

هذه المقدمة هى محاكمة عظيمة، أو كما يدعوها إيوالد Ewald هى «الاستجواب الكبير» للشعب المختار، إذ يبادر الله إلى تولى دور المدعى والقاضى فى آن واحد. أما السموات والأرض فهى تستدعى لتأييد الشكوى، والنبى هو الشاهد الرئيسى. [١]

والجريمة الموجهة إلى هذا الشعب هى العصيان الكلى لله.

ولأن الرب يتكلم، فها هنا مغزى واضح : الخطب جلل، وأى جلل أكثر من إصغاء السموات والأرض لكلام الله، وعصيان بنى إسرائيل.

شكوى الرب هنا من «شعبه المختار»، فقد رباهم وأنشأهم، أما هم، فقد قابلوا الإحسان بالإساءة وعصوا ربهم ... إنه نكران الجميل. [٢]

ولم يصل بنو إسرائيل فى مستوى الفهم إلى درجة الثور أو الحمار، لأن كلاً منهما يعرف مرجعه. الثور يعرف صاحبه، والحمار لا يخطئ فى معرفة معلفه، أما بنو إسرائيل فلا يعرفون الرب، الذى يجب أن يكون المآل المرتجى، وآخر المنتهى، ويأتى التأكيد الإلهى على غباء وجهل بنى إسرائيل بعد التشبيه الحيوانى السالف : لا يعرف شعبى لا يفهم. فعدم المعرفة هنا ناتج عن الغباء وعدم الفهم، وليس عن عدم التبليغ.

١- و. فتش، تفسير سفر إشعياء، فى تفسير الكتاب المقدس، تأليف جماعة من اللاهوتيين برئاسة فرنسس داقدسن، بيروت ١٩٨٨، جـ٤، ص ٢٧.

٢- ناشد حنا، إشعياء : مفصلاً آية آية، القاهرة، ١٩٨٢، ص ١٥.

أما الفقرة الرابعة من النص السابق، فهى تضم أربع صفات تتحد جميعها فى تأكيد مفهوم الشر والإفساد وتأصله وتجذره فى الشخصية الإسرائيلية، فهم : أمة خاطئة، وشعب ثقيل الإثم، ومن نسل فاعلى الشر، وأولاد مفسدين.

صورة قاسية ومقززة. كيف تتعامل مع شخص تعرف أنه من بيئة سيئة السمعة، كثيرة الأرجاس والآثام، ومن سلالة تخصصت فى فعل الشر، ومن أبوين سمتهما الإفساد ؟!، كيف يمكن لمرء سوىّ أن يقبل حتى مجرد الاختلاط بمثل هذه الشخصية الموبوءة ؟!

ويلاحظ تدرج إدمان الفساد والشرور، من الأبوين إلى النسل إلى الشعب إلى الأمة.

إنه فساد وراثى أصيل.

كما تضم الفقرة ذاتها ثلاث تهم مغلظة هى :

ترك الرب،

الاستهانة بقدوس إسرائيل،

الردة.

لم يكتف الإسرائيليون بترك الرب وحسب، بل استهانوا به : احتقروه وازدروا به[1]، وارتدوا إلى الوراء، أى ساروا فى عكس اتجاه الرب.

أما مصطلح «قدوس إسرائيل»، فلا نجد هذا التعبير يطلق على الله قبل زمن إشعياء، ومن المحتمل أن يكون من صنعه بعد أن رأى الرب، وكرس جهده ودعوته فيما بعد من أجل إبراز معنى الجلالة والعزة بأم عينه : «فى وفاة عزيا الملك رأيت السيد جالساً على كرسى عالٍ مترفع». (اشعياء ٦/١)

١- ناشد حنا، المرجع السابق، ص ٢٠.

وتشير الفقرة الخامسة إلى داء عضال تمكن من الشخصية الإسرائيلية، من الرأس والقلب. والرأس والقلب هما أساس الحياة. ففى الرأس المخ، إذا حل به عطب تأثر الجسد كله، والقلب يخرج منه الدم الذى يقيم أود الحياة، وإذا مسه سوء فقد يفقد الإنسان حياته.

فإذا كان رأس إسرائيل وقلبه مريضين سقيمين، فأى حياة سليمة مستقيمة ترجى من صاحبهما.

إن مرض الرأس والقلب ليوحى بمدى الزيغ الذى كان عليه إسرائيل، ذلك الزيغ الذى لم يفلح فيه علاج الرب المتمثل فى ضربهم ومضايقتهم للإفاقة من غيبوبة المرض المتمكن من رأس إسرائيل وقلبه.

ولم يقتصر المرض على الرأس والقلب - مع خطورتهما وأهميتهما للحياة السليمة - بل شمل المرض الجسم كله : «من أسفل القدم إلى الرأس».

إنها حالة ميئوس منها فى عالم الطب، أو هى حالة «موت اكلينيكى» إذا جاز لنا استخدام مصطلحات الطب الحديث فى تشخيص أمراض إسرائيل.

ثم تعالج الفقرات التالية شكلانية العبادة عند بنى إسرائيل، والمطلوب الإلهى منهم (١٠ -١٧)، حتى نصل إلى صفة جديدة وعلامة فريدة تميز الإسرائيليين عند الرب وهى حب الدماء : «أيديكم ملآنة دماء».

وتلاحظ بلاغة العبارة السابقة فى نصها العبرى، إذ أن الأيدى (فى صيغة الجمع) ملآنة - وليست ملطخة - بالدماء (فى صيغة الجمع).

إدانة للجميع من بنى إسرائيل، بارتكاب الجرائم التى تمخضت عنها تلك الدماء التى ملأت أيديهم.

أما بقية الفقرات فهى تفيدنا بتمادى إسرائيل فى فعل الشر ببجاحة ودون حياء من الرب، ثم تذكرهم بما لا يفعلونه من خيرات، مستحثة إياهم على عملها، وأى خيرات

أعظم من طلب الحق، وإنصاف المظلوم والقضاء لليتيم والدفاع عن الأرملة. إنها نماذج للخيرات التى لا يعرفها الإسرائيليون، وبدونها تختل الحياة وتفسد.

إن افتتاحية سفر إشعياء بهذه الحملة الشعواء على بنى إسرائيل، لتوحى بما كان عليه قومه آنذاك، لكنها فى نفس الوقت تقدم لنا أمراضاً مستعصية، تمكنت من الشخصية الإسرائيلية، إلى درجة لم يأت العلاج الإلهى معها بأية فائدة مرجوة، حتى استنكر الرب وصف أى علاج آخر لهم : علام تضربون بعد ؟!، هذا الاستفهام الاستنكارى يوحى باليأس من الإصلاح، ناهيك عن التوبيخ والتقريع.

وجاء فى سفر اشعياء (٥٩/١- ٨) - كذلك - ما نصه :

ها إن يد الرب لم تقصر عن أن تخلص ولم تثقل أذنه عن أن تسمع. بل آثامكم صارت فاصلة بينكم وبين إلهكم وخطاياكم سترت وجهه عنكم حتى لا يسمع. لأن أيديكم قد تنجست بالدم وأصابعكم بالإثم. شفاهكم تكلمت بالكذب ولسانكم يلهج بالشر. ليس من يدعو بالعدل وليس من يحاكم بالحق. يتكلمون على الباطل ويتكلمون بالكذب. قد حبلوا بتعب وولدوا إثما. فقسوا بيض أفعى ونسجوا خيوط العنكبوت. الآكل من بيضهم يموت والتى تكسر تخرج أفعى. خيوطهم لا تصير ثوبا ولا يكتسون بأعمالهم. أعمالهم أعمال إثم وفعل الظلم فى أيديهم. أرجلهم إلى الشر تجرى وتسرع إلى سفك الدم الزكى. أفكارهم أفكار إثم. فى طرقهم اغتصاب وسحق. طريق السلام لم يعرفوه وليس فى مسالكهم عدل. جعلوا لأنفسهم سبلا معوجة. كل من يسير فيها لا يعرف سلاماً.

مازلنا فى «عيادة» النبى إشعياء الذى يشخص لنا ذلك المرض العضال الذى حل بإسرائيل : مظاهره، ووصفات علاجه المأمولة.

ومظاهر الداء فى الفقرات السابقة تتمثل فى :

١- كثرة الآثام والخطايا والشرور.

٢- حب الدماء.

٣- الكذب.

٤- الظلم والجور.

٥- اغتصاب الحقوق.

٦- كراهية السلام.

لقد بلغ ارتكاب الآثام والخطايا والشرور مبلغه من قبل الإسرائيليين، حتى صار حاجزاً وفاصلاً بينهم وبين الرب. فالرب قادر، ومستمع لكل شئ، وهو إذ يعرض عن شعبه لا لعجز أو عدم سماع، وإنما لغلظ الفاصل الذى يحجز بينه وبين إسرائيل، وهى غلظة أدت إلى تراكم طبقاتها استمرارية ارتكاب كل إثم وشر وخطية.

إن هذه الخطايا والآثام قد شملت كل أعضاء الجسد الإسرائيلى :

فالأيدى تنجست بالدم،

والأصابع بالإثم،

والشفاه تكلمت بالكذب،

واللسان يلهج بالشر.

الأيدى والأصابع والشفاه واللسان، كلها أدوات عمل وفعل، وكلها - على نحو ما رأينا - قد أصيبت فى شخص إسرائيل.

وتؤكد الفقرات التالية إصابة أعضاء أخرى من هذا الجسد الآثم :

فالأرجل تسعى إلى الشر، وإلى سفك الدماء،

والأفكار غير بريئة.

إن المرض لم ينل من الأعضاء وحسب، بل تسلل إلى داخل النفس، وتمكن من الأفكار، إنها بالفعل حالة مرضية مستعصية، لا ينفع فيها علاج، ولا حتى البتر.

وحب إسرائيل للدماء يتضح من فقرتين فى النص السابق :

الأولى ، تشير إلى الأيدى المتنجسة بالدماء،

والثانية ، تشير إلى الجرى والإسراع إلى سفك هذه الدماء.

ونلاحظ أن الفقرة السابقة تصف الأرجل الإسرائيلية بالجرى، وتؤكد على عشق الدم بالإسراع فى الجرى من أجل سفك الدماء، وأى دماء هنا، إنها الدم الزكى.

أما الكذب فهو صفة يؤكد إشعياء على تمكنها من الشخصية الإسرائيلية : إذ يقول: «شفاهكم تكلمت بالكذب»، ثم يعاود الوصف مرة أخرى فيقول : «ويتكلمون الكذب»، وفى هذا كله تأكيد من النبى على استشراء هذه الظاهرة الكريهة فى قومه.

ومع أن فقرات الإصحاح الأول من إشعياء قد ركزت على طلب الإنصاف من بنى إسرائيل وعدم الظلم والجور، إلا أن إشعياء لم يكتف بذلك، بل عاد فى خواتيم سفره ليؤكد على تمكن الظلم من أعمالهم وأفعالهم، والذى يترتب عليه علامات مرضية أخرى تمثلت فى الاغتصاب، الذى يؤدى بدوره إلى السحق من أجل إتمام السيطرة وأخذ ما هو بغير حق له.

ثم تأتى خاتمة الفقرات لتوضح لنا حقيقة خطيرة فى مكونات الشخصية الإسرائيلية، ألا وهى عدم معرفة طريق السلام.

وعدم المعرفة هنا ليس نتيجة الجهل، بل هى ثمرة غرس مقصود : الإعوجاج والانحراف عن كل طريق يؤدى إلى السلام، فللسلام طرقه المستقيمة، ولكنهم «جعلوا لأنفسهم سبلاً معوجة، كل من يسير فيها لا يعرف سلاماً».

ولا نستطيع هنا أن نتجاوز تلك التشبيهات البليغة التى وردت فى الفقرات السابقة، لتضرب لنا النموذج لما عليه بنو إسرائيل من سوء.

ففى إطار وصف إسرائيل بالكذب نرى النبى إشعياء يصفهم بقوله : «قد حبلوا بتعب، وولدوا إثما».

فالحبل يفيد الامتلاء والازدياد حتى تحصل الولادة، وولادة الكذب لا تؤتى إلا إثماً.

ومثله تشبيه إشعياء التالى : «فقسوا بيض أفعى»، وبيض الأفعى مسموم، وهكذا أقوال إسرائيل وأفعالهم.

أما نسيج خيوط العنكبوت فهو دلالة على وهن أعمالهم وأفعالهم وعدم جدواها.

وهكذا لا ينتج عن إسرائيل إلا السموم القاتلة، ولا يمكن أن يجد المرء فى أعمالهم وأفعالهم خيراً يرتجى، ليستر العورات.

فالآكل من ثمارهم ميت، والمستتر بأثوابهم عريان.

وفى سفر إرمياء (٧/٨-٩) تطالعنا تلك الصفات :

«ها إنكم متكلمون على كلام الكذب الذى لا ينفع أتسرقون وتقتلون وتزنون وتحلفون كذباً وتبخرو للبعل وتسيرون وراء آلهة أخرى لم تعرفوها».

ثم يستكمل إرمياء وصف شعبه قائلاً (١٢/٣٠ - ١٤) :

«لأنه هكذا قال الرب. كسرك عديم الجبر وجرحك عضال ليس من يقضى حاجتك للعصر ليس لك عقاقير رفادة. قد نسيك كل محبيك. إياك لم يطلبوا لأنى ضربتك ضربة عدو تأديبَ قاسٍ لأن إثمك قد كثر وخطاياك تعاظمت، قد صنعت هذا بك».

الفقرات السابقة جاءت على لسان النبى إرمياء فى إصحاحه المنسوب إليه، وهى تصف لنا مرحلة تاريخية مهمة من مراحل الشخصية الإسرائيلية. إنها فترة القرن السابع قبل الميلاد، حينما كانت مملكة يهوذا خاضعة لأشور.

لقد ظهر إرمياء فى تلك الفترة، وكان أنبياء الكذب قد أخذوا بزمام الأمور، وباتوا يفتنون لإسرائيل، وراحوا يدفعونهم للتحالف مع مصر ضد أشور، وهو ما يخالف مشيئة الرب. ولما كانت النبوة فى إسرائيل ذات طابع دينى وسياسى واجتماعى، [1] فـإن إرمياء قد فشل سياسياً مع بنى إسرائيل. [2]

إن سفر إرمياء يحدد لنا بوضوح أن فساد شعبه قد استوجب العقاب الربانى المتمثل فى السبى الأشورى، ومن هذا المنطلق، قدم لنا إرمياء العديد من صفات إسرائيل التى استوجبت هذا العقاب.

ومن الصعب أن نتناول كل ما جاء فى هذا السفر الذى يعد وثيقة دامغة فى حق هذه الجماعة، ولكننا نكتفى بمثل هذه الفقرات التى تقدم لنا وصفاً عاماً لبنى إسرائيل.

والسمات العامة للشخصية الإسرائيلية فى الإصحاح (٧ / ٨ - ٩) هى :

١- الكذب فى القول.

٢- السرقة.

٣- القتل.

٤- الزنا.

٥- الحلف كذباً.

٦- عبادة الأوثان.

صفات ست، جمعت خسران الدنيا والآخرة.

فكذب وسرقة وقتل وزنا، وهذه جرائم دنيوية.

١- حول مهام النبوة الإسرائيلية، انظر : محمد خليفة حسن، ظاهرة النبوة الإسرائيلية، دار الزهراء للنشر، القاهرة، ١٩٩١، ص ١٨.

٢- ف. كولاى، «تفسير ارمياء» فى : تفسير الكتاب المقدس، المصدر السابق، ص ١٥٢.

وحلف بالكذب وعبادة أوثان وشرك، وهى جرائم أخروية.

إن القضية هنا هى أخلاقية بالدرجة الأولى. ففساد الخلق الإسرائيلى قد استوجب عقاباً شديداً من قبل الرب، وأى عقاب أشد من النسبى والاستعباد والذل.

إن هذه الجرائم الأخلاقية قد وردت فى النص العبرى فى صيغة المصدر، ومن ثم فهى تشير إلى تشديد فى ذات الفعل، وهذه الجرائم أيضاً، هى التى نهى الرب عنها نصاً فى فقرات أخرى من العهد القديم، وبخاصة وصاياه العشر، التى نهت عن السرقة والقتل والزنا والحلف كذباً، وكانت أول النواهى فيها عدم عبادة الأوثان.

فكأن بنى إسرائيل هنا - كما يفهم من تلك الفقرات - قد خالفوا جوهر الشريعة، وهدموا أركان الدين.

أما الفقرات التالية، وهى كذلك من سفر إرمياء (٣٠/ ١٢ - ١٤)، فترسم لنا صورة قاتمة لبنى إسرائيل.

فالرب قد حدد داء شعبه الميئوس منه، وهذا اليأس يتجلى فى العبارات الدالة على:

١- كسر إسرائيل عديم الجبر.

٢- الجرح عضال.

٣- استعصاء العلاج.

٤- كثرة آثام الشعب وخطاياه.

٥- العزلة.

والفقرات السابقة على قصرها، إلا أنها تحدد لنا أبعاد وضع إسرائيل زمن إرمياء، إذ لم تعد هناك إمكانية لإصلاحهم وإنقاذهم بعد أن تضاعفت كسورهم، وتعمقت جروحهم. وهذا الوضع نتيجة حتمية لكثرة آثامهم وتعاظم خطاياهم، وهو فى الوقت نفسه قد أدى إلى نتيجة أخرى تمثلت فى هروب المحبين عنهم، وبقائهم بلا رفيق أو صديق.

وهذه الصورة، مع أنها فى الإصحاح الثلاثين، إلا أنها لا تنفصل عما ورد فى الإصحاح السابع، فهى نتاج أفعالهم وأعمالهم التى ذكر بعضها فى أوائل السفر.

ويصف النبى ميخا قطاعاً كبيراً من شعبه فيقول (٣/٩ - ١١) :

«اسمعوا هذا يا رؤساء بيت يعقوب وقضاة بيت إسرائيل الذين يكرهون الحق ويعوجون كل مستقيم. الذين يبنون صهيون بالدماء وأورشليم بالظلم. رؤساؤها يقضون بالرشوة وكهنتها يعلمون بالأجرة وأنبياؤها يعرفون بالفضة وهم يتوكلون على الرب قائلين أليس الرب فى وسطنا لا يأتى علينا شر».

الفقرات الواردة آنفاً هى من سفر ميخا، ويحدد الباحثون تاريخ نبوته فى الفترة الواقعة بين ٧٥١ - ٦٨٧ ق.م، وفيها نبوءة ميخا بسقوط السامرة وانهيار المملكة الشمالية الإسرائيلية، وإن كان تمام نبوته قد تحقق بعد مائة عام. [١]

وتبدأ الفقرات بخطاب نبوى مهم، موجه إلى أعيان القوم وهم : رؤساء بيت يعقوب وقضاة إسرائيل.

ثم تعرج الفقرات إلى الكهنة والأنبياء وسائر الشعب.

الكل فاسد.

فالرؤساء والقضاة يكرهون الحق، ويعوجون كل مستقيم، يقتلون ويظلمون ويرتشون.

والكهنة يضلون الناس، ويفتون لمن يدفع لهم.

وسائر الشعب يجارى هؤلاء جميعاً.

١- آ. فرايزر، ستيفنس هودج، «تفسير ميخا»، فى : تفسير الكتاب المقدس، المصدر السابق، جـ٤/٤٥٣.
انظر كذلك : Smith, R. The Prophets of Israel, London, 189, pp. 289 - 293

إن الفقرات السابقة - فى رأيى - هى أخطر ما وجدته فى رسم ملامح الشخصية الإسرائيلية القيادية.

فالرؤساء والقضاة والأشراف والكهنة، أى الجهاز الحكومى والإدارى برمته فاسد. فالمفروض أنهم قد تولوا هذه المناصب العامة لخدمة الشعب، لكنهم خانوا الأمانة وزاغوا وانحرفوا.

إنه سوء استغلال للسلطات. وأوائل الإصحاح الثالث توضح لنا كيف كان ينعم هؤلاء بما لذ وطاب والآخرون جياع محرومون.

أما الأنبياء الزائفون، خدمة السلطان، فإنهم لا يعملون بوصايا الرب، ولا يرشدون إلا من يدفعون لهم.

لقد وصفهم ميخا بأفظع الأوصاف حين قال : «هكذا قال الرب على الأنبياء الذين يضلون شعبى الذين ينهشون بأسنانهم وينادون سلام». (٣/٥)

لقد استجمع ميخا فى خطابه من خلال الفقرات السابقة كل ما سبق أن قاله لشعبه. إن قادة أمته غير شرفاء، إنهم يسعون لبناء مدينة مزدهرة وأمة مفلحة ولكن على حساب حياة المساكين. إن القادة السياسيين والروحيين والدينيين جميعاً فاسدون، وكلهم راغبون فى رغبة واحدة - المال. [١]

هكذا تأتى أهمية فقرات ميخا. فإذا كان إشعياء أو إرمياء قد قدما لنا نماذج من صفات الشخصية الإسرائيلية على عمومها فإن ميخا قد استطاع بشجاعة أن يخط لنا معالم صورة الزعماء والقادة، وهى مع صفات أفراد الشعب التى أوردها الآخرون من الأنبياء، تقدم لنا صورة متكاملة للشخصية الإسرائيلية التى نحن بصدد استنباط معالمها وملامحها من أسفار العهد القديم.

١- حول علاقة ميخا بآحاز ملك يهوذا فى عصره، انظر: Nell, W. The Bible Story, London, 1974, pp. 83 - 87.

أما النبى صفنيا، فيوجز لنا الصورة العامة التى يراها لبنى إسرائيل فيقول (٢/١):

«تجمعى واجتمعى أيتها الأمة غير المستحبة».

لقد ظهر النبى صفنيا فى فترة محفوفة بالمخاطر وذلك خلال ملك شرير، ابن لملك صالح. إنه الملك منسى الذى حكم من (٦٩٦ - ٦٤٢ ق.م)، وكان أبوه الملك حزقيا ملكاً صالحاً. [1]

خلال عصر الملك منسى تدهورت الأوضاع على المستويين الأخلاقى و الدينى، إذ فى عهده «عمل الشر فى عينى الرب حسب رجاسات الأمم الذين طردهم الرب من أمام بنى إسرائيل، وعاد فبنى المرتفعات التى هدمها، أبوه حزقيا وأقام مذابح للبعليم وعمل سوارى وسجد لكل جند السماء وعبدها. وبنى مذابح فى بيت الرب الذى قال عنه الرب فى أورشليم يكون اسمى إلى الأبد. وبنى مذابح لكل جند السماء فى دارى بيت الرب. وعبّر بنيه فى النار فى وادى ابن هنوم، وعاف وتفاءل وسحر واستخدم جاناً وتابعةً وأكثر عمل الشر فى عينى الرب لإغاظته ... ولكن منسى أضل يهوذا وسكان أورشليم ليعملوا أشر من الأمم الذين طردهم الرب من أمام بنى إسرائيل. وكلم الرب منسى وشعبه فلم يصغوا». (أخبار الأيام الثانى ٣٣/ ٢- ١٠)

هذه الانحرافات العقدية والأخلاقية الخطيرة التى ارتكبها منسى بن حزقيا، لم تكن قاصرة عليه خلال فترة حكمه التى استمرت خمسة وخمسين عاماً، وإنما كانت كذلك من سمات شعبه. وهذا أمر طبيعى عندما تفسد الرأس، لا يسلم الجسد. فقد أضل منسى قومه - كفرعون - فأطاعوه وعصوا الرب، وساروا فى درب الملك، وحادوا عن طريق الرب.

ويبدو أن النبى صفنيا كان مهذباً فى تعامله مع قومه، إذا اكتفى فقط بأن يبلغنا - رغم سوءات قومه - بأن بنى إسرائيل كانوا فى عصره أمة غير مستحبة.

١- المزيد حول نبوة صفنيا فى: Oesterley, W. & Robinson, T., Hebrew Religion, Its Origin and Development, London, 1944, pp. 260 - 261.

أما أسباب عدم الاستحباب، فقد استخرجناها من موضع آخر، سقناه لنفهم وصف صفنيا لقومـه.

وفى إطار الوصف العام للشخصية الإسرائيلية، وجدنا صوراً فريدة فى شكلها وأبعادها، تمثلت فى وصف بنى إسرائيل بحيوانات وحشرات بعينها.

ولو أن أحد كتّاب العصر قد وصف الإسرائيليين بالحيوانات والحشرات لسارعت أبواق الدعاية واتهمته باللاسامية والعنصرية، وطالبت بمحاكمته، إن لم يسارع أتباعها بتطبيق الحكم عليه قبل سؤاله واستجوابه.

نحن هنا أمام أوصاف ربانية ونبوية، ترى فى الإسرائيليين تشابهاً مع الحيوانات والحشرات. فهل كان الرب والأنبياء لا ساميين ؟!

تقول النصوص المقدسة :

«الثور يعرف قانيه، والحمار معلف صاحبه. أما إسرائيل فلا يعرف. شعبى لا يفهم» (إشعياء ٣/١)

«لا تخف يا دودة يعقوب، يا شرذمة إسرائيل». (إشعياء ١٤/٤١)

«قد حبلوا (بنو إسرائيل) بتعب وولدوا إثماً. فقسوا بيض أفعى ونسجوا خيوط العنكبوت. الآكل من بيضهم يموت، والتى تكسر تخرج أفعى». (اشعياء ٥٩/٤- ٥)

«أما أنت يا ابن آدم (حزقيال) فلا تخف منهم (من بنى إسرائيل) ومن كلامهم. لا تخف لأنهم قَريس وسُلاَّء لديك وأنت ساكن بين العقارب» (حزقيال ٦/٢)

«أنبياؤك يا إسرائيل صاروا كالثعالب فى الخرب». (حزقيال١٣/٥)

«أما أنت فارفع مرثاة على رؤساء إسرائيل وقل : ما هي أمك؟ لبؤة ربضت بين الأسود وربت جراءها بين الأشبال. ربت واحداً من جرائها فصار شبلاً وتعلم افتراس الفريسة. أكل الناس».
(حزقيال ١٩/١- ٣)

«وإنه قد جمح إسرائيل كبقرة جامحة. الآن يرعاهم الرب كخروف في مكان واسع». (هوشع ١٦/٤)

«قد ابتُلع إسرائيل. الآن صاروا بين الأمم كإناء لا مسرة فيه. لأنهم صعدوا إلى أشور مثل حمار وحشي معتزل بنفسه».
(هوشع ٨/٨ -٩)

«هوذا شعب يقوم كلبوة، ويرتفع كأسد. لا ينام حتى يأكل فريسة ويشرب دم قتلى». (عدد ٢٤/٢٣)

«الله أخرجه من أرض مصر، له مثل سرعة الرئم. يأكل أمماً مضايقيه، ويقضم عظامهم ويحطم سهامه. جثم كأسدٍ، ربض كلبوة». (عدد ٢٤ /٨ - ٩)

أول ما نلاحظه على الفقرات السابقة، أنها شبهت بني إسرائيل بمجموعة من الحيوانات، وأخرى من الحشرات.

أما الحيوانات الشبيهة بإسرائيل فهي :

الثور، الحمار، البقرة، الخروف، الحمار الوحشي، الثعالب، الأسد، اللبؤة وأشبالها.

وأما الحشرات فهي :

العنكبوت، الحية والأفعى، العقارب، الدودة.

وأبرز وجوه الشبه بين إسرائيل والحيوانات المذكورة - ووفقاً لسياق النصوص - فهي:

١- الغباء وعدم الفهم (الثور والحمار)

٢- الجموح والتمرد (البقرة)

٣- المكر والأذى (الثعالب)

٤- افتراس الناس وحب الدماء (الأسد واللبؤة وأشبالها)

أما وجوه الشبه بين إسرائيل والحشرات الواردة فى الشواهد - وفقا لسياق النصوص أيضاً - فهى :

١- الوهن وقلة الفائدة (العنكبوت)

٢- التسبب فى قتل الآخرين وإيذائهم (الأفعى والعقارب)

٣- التفاهة والعجز (الدودة)

وهكذا قدمت لنا بعض أسفار العهد القديم، وبخاصة أسفار الأنبياء، الملامح العامة للشخصية الإسرائيلية، وكثرة أنبياء إسرائيل فى حد ذاتها ظاهرة غير صحية، لأن النبى لا يبعث إلا عندما يضل القوم ويزيغون ويفسدون، ومن ثم رأينا هؤلاء الأنبياء يشخصون أمراض قومهم، ويصفون لهم العلاج الناجح، لكن المرضى الحمقى - غالباً - لا يستجيبون لنصائح الطبيب.

الفصل الثاني

السلوك الديني للشخصية الإسرائيلية

السلوك الديني للشخصية الإسرائيلية

(أ) الشرك والكفر

التوحيد الخالص هو أساس الاعتقاد عند بنى إسرائيل. هذه حقيقة لا تقبل الجدل. فمنذ أن تراءى الرب لموسى والقضية محسومة :

> **«لا يكن لك آلهة أخرى أمامى. لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً ولا صورة ما مما فى السماء من فوق وما فى الأرض من تحت وما فى الماء من تحت الأرض. لا تسجد لهن، ولا تعبدهن. لأنى أنا الرب إلهك إله غيور».** (خروج ٢٠/٣ - ٥)

النص واضح للغاية. فلا شرك، ولا تجسيد للرب بشئ من خلقه، لا سجود إلا له، ولا عبادة لسواه.

ثم واصل الرب تحذيراته لشعبه من أتباع الأمم الأخرى وعبادة آلهتها :

> **«لا تسجد لآلهتهم ولا تعبدها، ولا تعمل كأعمالهم. بل تبيدهم وتكسر أنصابهم وتعبدون الرب إلهكم».** (خروج ٢٣/٢٤ - ٢٥)

والأوامر واضحة لا لبس فيها ولا غموض، والتأكيد على ما سبقها من إعلان الوحدانية الخالصة لرب واحد : لا سجود إلا له، ولا عبادة لسواه، بل لا ينبغى على بنى إسرائيل تقليد الوثنيين، بل عليهم أن يكسروا رموز الشرك.

ولأن الرب يعلم ضعف قلوب شعبه، فقد شدد على عدم الاختلاط بالأمم الوثنية خشية اتباعهم وتقليدهم فى شعائر وثنيتهم وكفرهم :

«احترز من أن تقطع عهداً مع سكان الأرض التى أنت آتٍ إليها لئلا يصيروا فخاً فى وسطك. بل تهدمون مذابحهم، وتكسرون أنصابهم، وتقطعون سواريهم. فإنك لا تسجد لإله آخر. لأن الرب اسمه غيور. إله غيور هو. احترز من أن تقطع عهداً مع سكان الأرض. فيزنون وراء آلهتهم، ويذبحون لآلهتهم، فتدعى وتأكل من ذبيحتهم. وتأخذ من بناتهم لبنيك. فتزنى بناتهم وراء آلهتهن، ويجعلن بنيك يزنون وراء آلهتهن». (خروج ٣٤/ ١٢ - ١٦)

يعود الرب مرة أخرى فيؤكد ويحذر بنى إسرائيل من الاختلاط بالشعوب الوثنية التى سيقابلها فى الأرض الموعودة، لأن القضية محسومة سلفاً لا عبادة إلا له. بل لقد نهى الرب عن مخالطة هؤلاء الوثنيين فى طعام أو مصاهرة، لأن هاتين العمليتين على وجه الخصوص، مما تتآلف بهما القلوب، وتضعف أمامهما النفوس. لا طعام ولا نكاح. وقد جاء تشبيه الشرك بالزنا لقباحته وفحشه، وهو المصطلح الذى ساد فى كثير من الأسفار.

وتتواصل المسيرة التوحيدية من خلال تدخل الرب فى مجرى الأحداث، ليذكر شعبه بين حين وآخر بخطورة الانحراف العقدى، ومغبة ذلك عليهم، ورابطاً بين استحقاقه وحده للعبادة، وبين نعمه وآلائه على بنى إسرائيل. فإذا زاغت القلوب وراء آلهة الأمم الأخرى، عليهم أن يتذكروا نعم الله عليهم :

«فاحتفظوا جداً لأنفسكم. فإنكم لم تروا صورة ما يوم كلمكم الرب فى حوريب من وسط النار. لئلا تفسدوا وتعملوا لأنفسكم تمثالاً منحوتاً صورة مثال ما شبه ذكر أو أنثى. شبه بهيمة ما مما على الأرض، شبه طير ما ذى جناح مما يطير فى السماء. شبه دبيب ما على الأرض. شبه سمك ما مما فى الماء من تحت الأرض. ولئلا ترفع عينيك إلى السماء وتنظر الشمس والقمر والنجوم كل جند السماء

التى قسمها الرب إلهك لجميع الشعوب التى تحت كل السماء فتغتر وتسجد لها وتعبدها، وأنتم قد أخذكم الرب وأخرجكم من كور الحديد من مصر كى تكونوا له شعب ميراث كما فى هذا اليوم». (تثنية ٤/١٥ - ١٩)

بعد كل هذه التحذيرات، وبعد تلك النعم التى أسبغها الرب على شعبه، كان لابد للرب أن يصدر حكمه الرادع على كل من تسول له نفسه بالعبث بوحدانيته، والخروج على قدسيته وتفرده. إنه حد الردة الذى ليس فيه شبهة :

«إذا وجد فى وسطك فى أحد أبوابك التى يعطيك الرب إلهك رجل أو امرأة يفعل شراً فى عينى الرب إلهك بتجاوز عهده، ويذهب ويعبد آلهة أخرى ويسجد لها أو للشمس أو للقمر أو لكل من جند السماء، الشئ الذى لم أوص به ... فأخرج ذلك الرجل أو تلك المرأة الذى فعل ذلك الأمر الشرير إلى أبوابك : الرجل والمرأة وارجمه بالحجارة حتى يموت. على فم شاهدين أو ثلاثة شهود يقتل الذى يقتل. لا يقتل على فم شاهد واحد. أيدى الشهود تكون عليه أولاً لقتله، ثم أيدى جميع الشعب أخيراً، فتنزع الشر من وسطك».
(تثنية ١٧/٢ - ٧)

لقد كنى الرب عن الشرك بالشر، وهو اصطلاح ساد - كذلك - فى وصف كفر وفسوق إسرائيل وملوكها.

كما اشترط الرب شاهدين أو ثلاثة على شرك الرجل أو المرأة.

وحدد كذلك العقوبة بوضوح : الرجم بالحجارة حتى الموت.

ولكن، هل حافظ الإسرائيليون على هذا التوحيد النقى، ولم ينصرفوا إلى عبادة الآلهة الأخرى من ثيران وأسماك وخلافه ؟!

وهل طبق الإسرائيليون حد الردة على من أشرك من بينهم، لينزعوا الشر من وسطهم كما أمرهم الرب ؟!

هـذا ما سـنعرض لـه الآن.

يحدثنا سفر الخروج - مبكراً - بأول انحراف عقدى، بينما لا يزال موسى بينهم، والوصايا غضة لم تحرف أو تزور أو تنسى أو تمحى.

> **«ولما رأى الشعب أن موسى أبطأ فى النزول من الجبل، اجتمع الشعب على هارون وقالوا له : قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا. لأن هذا موسى الرجل الذى أصعدنا من أرض مصر، لا نعلم ماذا أصابه. فقال لهم هارون : انزعوا أقراط الذهب التى فى آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم وأتونى بها. فنزع كل الشعب أقراط الذهب التى فى آذانهم وأتوا بها إلى هارون. فأخذ ذلك من أيديهم وصوره بالإزميل وصنعه عجلاً مسبوكاً. فقالوا هذه آلهتك يا إسرائيل التى أصعدتك من أرض مصر. فلما نظر هارون بنى مذبحاً أمامه. ونادى هارون وقال غداً عيد للرب. فبكروا فى الغد وأصعدوا محرقات وقدموا ذبائح سلامة وجلس الشعب للأكل والشرب، ثم قاموا للعب».** (خروج ٣٢/١- ٦)

ملهاة بكل المقاييس، لم يشارك فى لعب أدوارها بنو إسرائيل وحسب، بل أخرجها لهم على «مسرح سيناء» هارون النبى.

صنعوا تمثال عجل واتخذوه إلهاً.

وذبحوا له وأصعدوا المحرقات.

وسنوا له عيداً.

ثم جلسوا يأكلون ويشربون ويلعبون.

والستار لم يسدل بعد على مسرحية الكفر الإسرائيلى، فهذا كان أول مشاهدها، ويالها من مسرحية طال زمانها، وتعددت شخصياتها، وتغير وتبدل مخرجوها.

إن دلالات عبادة العجل خطيرة بحق، فهى تعكس عدة قضايا مهمة :

* فالتوحيد لم يتمكن من قلوب الشعب بعد مع أن موسى بينهم.

* تعلق قلوب الإسرائيليين بعبادات المصريين.

* انحراف أول نبى يعترف بنبوته العهد القديم.

لذلك سارع الرب بإطلاق موسى ليعود إلى شعبه لينقذ ما بقى فى قلوبهم من توحيد :

«قال الرب لى : قم انزل عاجلاً من هنا لأنه قد فسد شعبك الذى أخرجته من مصر. زاغوا سريعاً عن الطريق التى أوصيتهم. صنعوا لأنفسهم تمثالاً مسبوكاً». (تثنية ١٢/٩ -)

ولولا شفاعة موسى، لأباد الرب إسرائيل (تثنية ٢٥/٩- ٢٩)

ثم تمضى فترة من تاريخ الإسرائيليين ينشغلون فيها بالمعارك والحروب والإبادة والسلب والنهب، ثم تقسيم الأراضى على الأسباط وورثتهم، ويواصل الرب تذكيره لشعبه بوحدانيته، ويحذر من الشرك به :

«فتشددوا جداً لتحفظوا وتعملوا كل المكتوب فى سفر شريعة موسى حتى لا تحيدوا عنها يميناً ولا شمالاً. حتى لا تدخلوا إلى هؤلاء الشعوب. أولئك الباقين معكم، ولا تذكروا اسم آلهتهم ولا تحلفوا بها ولا تعبدوها ولا تسجدوا لها». (يشوع ٢٣/ ٦ - ٧)

وقبل أن يموت يشوع، جمع الشعب وأوصاهم بالتخلص من أدران الشرك التى لصقت بهم، ونزع الآلهة الغريبة من بينهم، وإمالة قلوبهم إلى إله إسرائيل، حتى لا يرجع فيسئ إليهم ويفنيهم، وأشهدهم يشوع على ذلك، وقطع معهم عهداً. (يشوع ١/٢٤- ٢٨)

لكن سرعان – بعد موت يوشع – أن قام جيل :

«لم يعرف الرب ولا العمل الذى عمل لإسرائيل، وفعل بنو إسرائيل الشر فى عينى الرب وعبدوا البعليم، وتركوا الرب إله آبائهم الذى أخرجهم من أرض مصر وصاروا وراء آلهة أخرى من آلهة الشعوب الذين حولهم، وسجدوا لها وأغاظوا الرب. تركوا الرب وعبدوا البعل وعشتاروت». (قضاة ٢/ ١٠- ١٣)

لقد شهد عصر القضاة ردة بنى إسرائيل، وانتكاسة الوحدانية، مع أن مؤازة الرب لهم لم تنقطع :

«وأقام الرب قضاة فخلصوهم من يد ناهبيهم. ولقضاتهم أيضاً لم يسمعوا بل زنوا وراء آلهة أخرى وسجدوا لها. حادوا سريعاً عن الطريق التى سار بها آباؤهم لسمع وصايا الرب. لم يفعلوا هكذا ... عند موت القاضى كانوا يرجعون ويفسدون أكثر من آبائهم بالذهاب وراء آلهة أخرى ليعبدوها ويسجدوا لها. لم يكفوا عن أفعالهم وطريقهم القاسية». (قضاة ٢/ ١٦ – ١٩)

لقد ارتكب بنو إسرائيل كل ما نهاهم عنه وحذرهم منه الرب إلههم. ولو قارنا النصوص السابقة التى فيها تحذيرهم، مع النصوص الآتية التى تصف أفعالهم، لوجدناها متطابقة بعد حذف كل كلمة أو حرف يفيد النهى :

«فسكن بنو إسرائيل فى وسط الكنعانيين والحثيين والأموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين. واتخذوا بناتهم لأنفسهم نساء، وأعطوا بناتهم لبنيهم وعبدوا آلهتهم. فعمل بنو إسرائيل الشر فى عينى الرب ونسوا الرب إلههم وعبدوا البعليم والسوارى. فحمى غضب الرب على إسرائيل فباعهم بيد كوشان رشعتايم ملك أرام النهرين.. فعبد بنو إسرائيل كوشان رشعتايم ثمانى سنين». (قضاة ٣/ ٥ – ٨)

واستمر بنو إسرائيل فى عبادة طواغيت البشر، وأوثان الأمم الأخرى، فعبدوا عجلون ملك مؤاب ثمانى عشرة سنة (قضاة ١٤/٣)، واستمروا على شركهم بعد موت القاضى إهود (قضاة ١/٤) وأنقذتهم دبورة النبية لكنهم لم يلبثوا أن عادوا مرة أخرى إلى شركهم وكفرهم (قضاة ١/٦) واستمرت عبادة البعل بينهم (قضاة ٢٥/٦)، بل لقد تآمروا على قتل جدعون بن يوآش الذى أخذته الحمية وهدم مذبح البعل وقطع السارية (قضاة ٢٨/٦ - ٣٠)، لكنه تمكن من إعادة قومه إلى عبادة الرب، بيد أنهم **«بعد موت جدعون، عادوا وزنوا وراء البعليم، وجعلوا لهم بعل بريت إلهاً، ولم يذكر بنو إسرائيل الرب إلههم الذى أنقذهم من يد جميع أعدائهم من حولهم»**. (قضاة ٣٣/٨- ٣٤)

وبعد أن خلصهم القاضى يائير الجلعادى، عادوا بعد موته إلى عادتهم ونهجهم السالف.

> **«وعبدوا البعليم والعشتاروت وآلهة أرام وآلهة صيدون وآلهة موآب وآلهة بنى عمون وآلهة الفلسطينيين وتركوا الرب ولم يعبدوه»**. (قضاة ٦/١٠)

إنه معرض للآلهة، شهده عصر القضاة، إذ لم يترك بنو إسرائيل شعباً من الشعوب التى احتكوا بها وسلبوا أرضها أو عاشوا بينها إلا وعبدوا آلهتهم.

وقامت أم ميخا - من سبط أفرايم - بعمل تمثال منحوت وأخر مسبوك من الفضة **«وكان للرجل ميخا بيت للآلهة»**. (قضاة ٥/١٧)

وهكذا كانت أوضاع بنى إسرائيل، ولم تمض على مفارقة موسى لهم عدة عقود.

وتمضى أزمنة الشرك متغلغلة فى تاريخ بنى إسرائيل، حتى فى ظل وجود النبى صموئيل، الذى استغل فرصة انهزام شعبه أمام الفلسطينيين وطالبهم بالعودة إلى الرب.

> **«انزعوا الآلهة الغريبة والعشتاروت من وسطكم وأعدوا قلوبكم للرب واعبدوه وحده فينقذكم من يد الفلسطينيين»**. (صموئيل الأول ٣/٧)

ويبدو أن فترة داود كانت من الفترات التى شهدت انحساراً للشرك الإسرائيلى إذا ما قورنت بما قبلها وما بعدها، وربما كان سبب ذلك انشغال إسرائيل فى الحروب، وتأسيس مملكة مستقرة - إلى حد ما - لم يكن للأمم الأخرى تأثير واضح عليها، بالإضافة إلى أن سياسة داود، وربط انتصاراته بالرب، كان من الطبيعى أن يتولد عنها انصراف عن الشرك واتجاه إلى الرب. ويمكن القول بأن عصر داود قد شهد تجفيفاً لمنابع الشرك التى شهدتها الفترات السابقة عليه من تاريخ إسرائيل.

وبعد موت داود، وتملك سليمان، جدد الرب عهده مع سليمان، وحذره من عبادة الآلهة الأخرى والسجود لها (ملوك أول ٩/٦ - ٧)، إلا أن سليمان كان أول المخالفين للعهد :

«وأحب الملك سليمان نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون : موآبيات وعمونيات وأدوميات وصيدونيات وحثيات، من الأمم الذين قال عنهم الرب لبنى إسرائيل لا تدخلون إليهم وهم لا يدخلون إليكم لأنهم يميلون قلوبكم وراء آلهتهم. فالتصق سليمان بهؤلاء بالمحبة. وكانت له سبع مئة من النساء السيدات وثلاث مئة من السرارى، فأمالت نساؤه قلبه. وكان فى زمان شيخوخة سليمان أن نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى، ولم يكن قلبه كاملاً مع الرب إلهه كقلب داود أبيه. فذهب سليمان وراء عشتورت إلاهة الصيدونيين وملكوم رجس العمونيين. وعمل سليمان الشر فى عينى الرب (أى أشرك) ولم يتبع الرب تماماً كداود أبيه. حينئذ بنى سليمان مرتفعة لكموش رجس المزابيين على الجبل الذى تجاه أورشليم، ولمولك رجس بنى عمون. وهكذا فعل لجميع نسائه الغريبات اللواتى كن يوقدن ويذبحن لآلهتهن. فغضب الرب على سليمان لأن قلبه مال عن الرب إله إسرائيل الذى تراءى له مرتين وأوصاه فى هذا الأمر أن لا يتبع آلهة أخرى. فلم يحفظ ما أوصى به الرب». (ملوك أول ١/١١ - ١٠)

صورة بشعة للانحراف العقدى فى تاريخ إسرائيل. الملك سليمان، أحد رموز إسرائيل الكبار، يظهر له الرب مرتين ويوصيه ويحذره، لكنه لا يستجيب، بل ويتمادى فى شركه، فيعبد آلهة نسائه اللاتى بلغن سبعمائة. يبنى لآلهتهن المرتفعات، ويوقد لهن، ويذبح لهن.

وحتى هذه اللحظات من تاريخ الشرك الإسرائيلى بالإله، لم يطبق حد الردة المنصوص عليه فى الشريعة، ولا ندرى، هل كان كتاب الشريعة بصورته التى بين أيدينا موجوداً خلال تلك الوقائع والأحداث، وتغاضى بنو إسرائيل عن تطبيقه، أم كانت هذه النصوص غائبة وقتئذ، أم أنها جاءت فى وقت لاحق، لمعالجة خلل واضح فى الكتاب؟!

وورث ملوك إسرائيل ويهوذا - بعد انقسام ملك سليمان - الشرك والكفر، وهنا هو يربعام، يحن إلى معبود آبائه، العجل الذهبى، بل ويفعل ما هو أكثر من ذلك :

> «فاستشار الملك (يربعام) وعمل عجلى ذهب، وقال لهم : كثير عليكم أن تصعدوا إلى أورشليم. هو ذا آلهتك الذين أصعدوك من أرض مصر، ووضع واحداً فى بيت - إيل، وجعل الآخر فى دان».
> (ملوك أول ١٢/٢٨ - ٢٩)

ولم يكتف يربعام بذلك، فبنى المرتفعات المنهى عنها، وسنّ أعياداً ليست فى دينه، وذبح لغير الله بل للعجلين الذهبيين، وصيّر كهنة من غير بيت لاوى. (ملوك أول ١٢/٣١ - ٣٣)

ونافس رحبعام أخاه يربعام فى الشرك والضلال، وأزاغ قومه فى أورشليم ويهوذا، وعملوا من الخطايا أكثر مما عمله آباؤهم، وبنوا كذلك المرتفعات والأنصاب والسوارى ونشروها فى كل مكان (ملوك أول ١٤/٢١ - ٢٤).

وأشرك أبيام بن داود الذى تملك على يهوذا. (ملوك أول ١٥/٤)

كما أشرك ناداب بن يربعام الذى ملك على إسرائيل. (ملوك أول ١٥/٢٧)
وأشرك بعشا بن أخيا من بيت يساكر بن يعقوب. (ملوك أول ١٥/٢٤)
كما أشرك عمرى ملك إسرائيل، وأساء أكثر ممن قبله. (ملوك أول ١٦/٢٥)
وفاق آخاب بن عمرى فى الشرك من سبقه. (ملوك أول ١٦/ ٣٠)
وأشرك كذلك أخزيا بن آخاب. (ملوك ثان ١/٢)
وتابعه أخوه يهورام بن آخاب على نفس الطريق. (ملوك ثان ٣/ ١ - ٣)
وأشرك أيضاً يهورام بن يهوشافاط ملك يهوذا. (ملوك ثان ٨/ ١٨)
وواصل أخزيا بن يهورام - ملك يهوذا - مسيرة ملك يهوذا. (ملوك ثان ١٢/٣)
كما أشرك يهو أحاز بن ياهو ملك إسرائيل وسار على درب شرك السابقين. (ملوك ثان ١٣/٢)
وأشرك ابنه يهوآش كذلك. (ملوك ثان ١٣/ ١٠ - ١١)
واستمر أهل يهوذا فى شركهم أيام أمصيا بن يوآش. (ملوك ثان ١٤/٤)
وأشرك يربعام بن يوآش ملك إسرائيل. (ملوك ثان ١٤/٢٤)
وواصل أهل يهوذا شركهم إبان حكم عزريا بن أمصيا. (ملوك ثان ١٥/٤)
كما أشرك زكريا بن يربعام ملك إسرائيل. (ملوك ثان ١٥/٩)
وأشرك منحيم بن جادى ملك إسرائيل أيضاً. (ملوك ثان ١٥/١٨)
وورث ابنه فقحيا بن منحيم الشرك والكفر عن أبيه مع الملك. (ملوك ثان ١٥/٢٣)
وانتهب الملك منه فقح بن رمليا ليواصل مسيرة كفر إسرائيل. (ملوك ثان ١٥/٢٨)
واستمر أهل يهوذا على شركهم فى عهد يوثام بن عزيا. (ملوك ثان ١٥/٣٥)
وسار أحاز بن يوثام فى طريق الشرك كذلك. (ملوك ثان ١٦/٢ - ٤)
وكان هوشع بن أيله ملك إسرائيل مشركاً وإن كان أخف ممن سبقوه. (ملوك ثان ١٧/٢)

وفيما يلى نسوق بيان سفر الملوك الثانى، الذى حدد لنا مظاهر الانحراف والزيغ والضلال التى ارتكبها بنو إسرائيل فى مرحلة انقسام المملكة، والتى استوجبت عقاب الرب الشديد. والمتمثل فى السبى الأشورى :

«فى السنة الثانية عشرة لآحاز ملك يهوذا ملك هوشع بن أيلة فى السامرة على إسرائيل تسع سنين، وعمل الشر فى عينى الرب ولكن ليس كملوك إسرائيل الذين كانوا قبله. وصعد عليه شلمنأ سر ملك أشور فصار له هوشع عبداً ودفع له جزية. ووجد ملك أشور فى هوشع خيانة. لأنه أرسل رسلاً إلى سوا ملك مصر ولم يؤد جزية إلى ملك أشور حسب كل سنة فقبض عليه ملك أشور وأوثقه فى السجن. وصعد ملك أشور على كل الأرض وصعد إلى السامرة وحاصرها ثلاث سنين. فى السنة التاسعة لهوشع أخذ ملك أشور السامرة وسبى إسرائيل إلى أشور وأسكنهم فى حلح وخابور نهر جوزان وفى مدن مادى. وكان أن بنى إسرائيل أخطأوا إلى الرب إلههم الذى أصعدهم من أرض مصر من تحت يد فرعون ملك مصر وأتقوا آلهة أخرى وسلكوا حسب فرائض الأمم الذين طردهم الرب من أمام بنى إسرائيل وملوك إسرائيل الذين أقاموهم. وعمل بنو إسرائيل سراً ضد الرب إلههم أموراً ليست بمستقيمة وبنوا لأنفسهم مرتفعات فى جميع مدنهم من برج النواطير إلى المدينة المحصنة. وأقاموا لأنفسهم أنصاباً وسوارى على كل تل عال وتحت كل شجرة خضراء. وأوقدوا هناك على جميع المرتفعات مثل الأمم الذين ساقهم الرب من أمامهم وعملوا أموراً قبيحة لإغاظة الرب. وعبدوا الأصنام التى قال الرب لهم عنها لا تعملوا هذا الأمر. وأشهد الرب على إسرائيل وعلى يهوذا عن يد جميع الأنبياء وكل راءٍ قائلاً ارجعوا عن طرقكم الردية واحفظوا وصاياى فرائضى حسب كل

الشريعة التى أوصيت بها آباءكم والتى أرسلتها إليكم عن يد عبيدى الأنبياء. فلم يسمعوا بل صلبوا أقفيتهم كأقفية آبائهم الذين لم يؤمنوا بالرب إلههم. ورفضوا فرائضه وعهده الذى قطعه مع آبائهم وشهاداته التى شهد بها عليهم وساروا وراء الباطل وصاروا باطلاً وراء الأمم الذين حولهم الذين أمرهم الرب أن لا يعملوا مثلهم. وتركوا جميع وصايا الرب إلههم وعملوا لأنفسهم مسبوكات عجلين وعملوا سوارى وسجدوا لجميع جند السماء وعبدوا البعل وعبروا بنيهم وبناتهم فى النار وعرفوا عرافة وتفاءلوا وباعوا أنفسهم لعمل الشر فى عينى الرب لإغاظته فغضب الرب جداً على إسرائيل ونحاهم من أمامه ولم يبق إلا سبط يهوذا وحده. ويهوذا أيضاً لم يحفظوا وصايا الرب إلههم بل سلكوا فى فرائض إسرائيل التى عملوها. فرذل الرب كل نسل إسرائيل وأذلهم ودفعهم ليد ناهبين حتى طرحهم من أمامه. لأنه شق إسرائيل عن بيت داود فملكوا يربعام بن نباط فأبعد يربعام إسرائيل من وراء الرب وجعلهم يخطئون خطية عظيمة. وسلك بنو إسرائيل فى جميع خطايا يربعام التى عمل. لم يحيدوا عنها حتى نحى الرب إسرائيل من أمامه كما تكلم عن يد جميع عبيده الأنبياء فسبى إسرائيل من أرضه إلى أشور إلى هذا اليوم». (ملوك ثان ١٧/١ - ٢٣)

ثم يعاود بنو إسرائيل مسيرة شركهم، ويتولى منسى بن حزقيا ملك يهوذا،

«وعمل الشر حسب رجاسات الأمم الذين طردهم الرب من أمام بنى إسرائيل. وعاد فبنى المرتفعات التى أبادها حزقيا أبوه، وأقام مذابح للبعل، وعمل سارية، كما عمل آخاب ملك إسرائيل وسجد لكل جند السماء، وعبدها، وبنى مذابح فى بيت الرب الذى قال عنه فى أورشليم أضع أسمى، وبنى مذابح لكل جند السماء فى دارى

بيت الرب، وعبّر ابنه في النار، وعاف وتفاءل واستخدم جاناً وتوابع، وأكثر عمل الشر في عيني الرب لإغاظته. ووضع تمثال السارية التي عمل في البيت الذي قال الرب عنه لداود وسليمان ابنه : في هذا البيت وفي أورشليم التي اخترت من جميع أسباط إسرائيل أضع اسمي إلى الأبد». (ملوك ثان ٢١/٢- ٧)

هذه جرائم ملك واحد من ملوك بني إسرائيل في يهوذا، اشتملت على كل الموبقات المهلكات. عبادة البعل، عبادة الكواكب والنجوم، بناء المذابح والمرتفعات للأوثان، تعبير ابنه بالنار - وكانت هذه عادة عبدة الأوثان في الأمم الأخرى -، تدنيس بيت الرب في أورشليم، ناهيك عن السجود لغير الله من الآلهة والأوثان التي عاصرها.

وكان من الطبيعي أن يواصل ابنه آمون المسيرة في طريق الكفر والشرك.

«وسلك في كل الطريق الذي سلك فيه أبوه وعبد الأصنام التي عبدها أبوه وسجد لها. وترك الرب إله آبائه، ولم يسلك في طريق الرب». (ملوك ثان ٢١/٢٢ - ٢)

كما أشرك يهوآحاز بن يوشيا ملك أورشليم. (ملوك ثان ٣٢/٢٣)

وتابعه ابنه الياقيم (يهوياقيم) على شركه. (ملوك ثان ٣٧/٢٣)

وتابع يهوياكين شرك أبيه وجده السابقين. (ملوك ثان ٩/٢٤)

وسار العم صدقيا على نهج سابقيه كذلك. (ملوك ثان ١٩/٢٤)

ثم كان السبي البابلي على يدي نبوخذ نصر، وتدمير أورشليم وبيت الرب، لتحقيق نبوءة الأنبياء، جزاءً وفاقاً لبني إسرائيل في يهوذا، ولتطوى صفحة سوداء، بل صحائف سود - امتلأت بوقائع الشرك ورجاساته - من تاريخ بني إسرائيل.

ومع أن أحداث سفري أخبار الأيام هي تكرار - في معظمها - لما وقع في غيرها من الأسفار السابقة، إلا أنها لا تخلو من عبارات نتوقف عند بعضها.

فهناك إفادة بما كان عليه سبط منسى من بنى إسرائيل، ويستفاد منها «عمومية» الشرك بين نسل هذا السبط :

«وبنو سبط منسى سكنوا فى الأرض ... وخانوا إله آبائهم وزنوا وراء آلهة شعوب الأرض الذين طردهم الرب من أمامهم». (أخبار الأيام الأول ٥/٢٣ - ٢٥)

كما تفيد عبارة أخرى فى سفر أخبار الأيام الثانى بأن سليمان الملك، كان يعتقد فى وجود آلهة أخرى، وإن كان يؤمن بعظم إلهه بينها، وهو ما يمكن أن يطلق عليه فى مصطلحات دراسة الأديان بمرحلة الترجيح [1]. يقول سليمان :

«لأن إلهنا أعظم من جميع الآلهة». (٢/٥)

وفقرة أخرى فى نفس السفر تشير إلى ما كانت عليه إسرائيل فى معظم أيام تاريخها :

«ولإسرائيل أيام كثيرة بلا إله حق، وبلا كاهن معلم، وبلا شريعة». (٣/٢٥)

وتعكس العبارة السابقة حالة «الخواء الدينى» التى مرت على إسرائيل خلال تاريخها، وكانت أياماً كثيرة بحق؛ فلا إله، ولا كاهن، ولا شريعة.

كما هدم فريق من بنى إسرائيل بيت الرب، وحولوا مخصصاته ومقدساته للبعليم :

«لأن بنى عثليا الخبيثة قد هدموا بيت الله وصيروا كل أقداس بيت الرب للبعليم». (أخبار الأيام الثانى ٧/٢٤) [2]

١- انظر فى ذلك كتابنا : العقيدة : أصولها التاريخية وأسسها الإسلامية، الجيزة، ١٩٩٢، ص ٢٣.

٢- مزيد من نماذج الشرك : ١٨/٢٤ - ٢١؛ ١٤/٢٥؛ ٢/٢٨ -٤، ٢٢ - ٢٦ وغيرها.

وفى اعتذار من النبى نحميا للرب على صنيع بنى إسرائيل، نراه يعدد وجوه الإحسان الإلهى لهم، ونعمه التى لا تعد ولا تحصى، ثم المقابل الإسرائيلى لذلك وهو أنهم :

«عصوا وتمردوا عليك وطرحوا شريعتك وراء ظهورهم وقتلوا أنبياءك الذين أشهدوا عليهم ليردوهم إليك، وعملوا إهانة عظيمة... ولكن لما استراحوا رجعوا إلى عمل الشر قدامك».
(نحيما ٩/٢٦ - ٢٨)

ثم يعلنها نحميا صراحة :

«وهم لم يعبدوك فى مملكتهم وفى خيرك الكثير الذى أعطيتهم وفى الأرض الواسعة السمينة التى جعلتها أمامهم، ولم يرجعوا عن أعمالهم الردية». (٩/ ٣٥)

ويواصل نحميا تعداد مظاهر الانحراف العقدى والاعتراف بها أمام الرب طمعاً فى مغفرته وعفوه. (١٣/١٥ - ١٨)

وهكذا اعترف إشعياء بردة إسرائيل وانتكاستها دينياً (إشعياء ٥/٢٤؛ ٦٣/١٠)

وندد النبى إرمياء بالآلهة التى صنعها الإسرائيليون، ووقفت عاجزة عن خلاصهم وقت الشدة. (إرمياء ٢/٢٨)

ثم يأتى تبرير أفعال الرب بإسرائيل، وما حل بهم من سبى وذلك كما أخبر الرب إرمياء :

«تقول لهم : كما أنكم تركتمونى وعبدتم آلهة غريبة فى أرضكم هكذا تعبدون الغرباء فى أرض ليست لكم». (إرمياء ٥/١٩)

كما تصور لنا بعض فقرات سفر إرمياء، ما فعله الإسرائيليون من أعمال الشرك والكفر : الأبناء والآباء والنساء. (إرمياء ٧/ ١٧ - ٨)

أما سفر حزقيال، فيقدم لنا صورة مفصلة لما قام به بنو إسرائيل فى يهوذا من أعمال الشرك والكفر، فقد أقاموا التماثيل والأصنام، ويخروا لها، كما يقدم لنا موجزاً لخراب عقيدتهم، وفساد طويتهم، إذ لم يعد ثمة إيمان بالرب فى قلوبهم، فهم يقولون : **«الرب لا يرانا، الرب قد ترك الأرض»** (حزقيال ٨/ ١٢)، ومن هنا وانطلاقاً من عقيدة (غياب الرب عن الوجود) أى (إنكار وجوده) كانت نسوة إسرائيل **«جالسات يبكين على الإله تموز»** (حزقيال ٢٤/٨)، وأعطى الرجال من القوم ظهورهم لهيكل الرب ووجهوا وجوههم نحو الشرق **«وهم ساجدون للشمس نحو الشرق»**. (حزقيال ١٦/٨)

ويسطر لنا النبى هوشع على لسان الرب وصفاً لما قام به قطاع عريض من شعبه فى إسرائيل فيقول :

> **«قد كره إسرائيل الصلاح فيتبعه العدو. هم أقاموا ملوكاً وليس منى، أقاموا رؤساء وأنا لم أعرف. صنعوا لأنفسهم من فضتهم وذهبهم أصناماً لكى ينقرضوا. قد زنخ عجلك يا سامرة. حمى غضبى عليهم. إلى متى لا يستطيعون النقاوة؟»**. (هوشع ٨/ ٢ -٥)

وما أروع هذا الاستفهام الوارد فى ختام الفقرات. لقد فاض بالرب إلههم فتساءل بحيرة ودهشة : إلى متى لا يستطيعون النقاوة؟!، والعبارة تفيد استمرارية إسرائيل فى «القذارة» التى هى عكس «النقاوة»، وأى شئ أفظع قذارة من الشرك؟!

أما النبى ملاخى، فيختم لنا مقولة من مقولات إسرائيل الضالة، التى تعكس كفرهم بالرب، بعد كل ما فعل من أجلهم، بدءاً من مباركة نصب واحتيال يعقوب، وحتى سطرت آخر فقرات العهد القديم : قال الرب لشعبه المدلل :

> **«قلتم عبادة الرب باطلة. وما المنفعة من أننا حفظنا شعائره، وأننا سلكنا بالحزن قدام رب الجنود»**. (ملاخى ١٤/٣)

وأخيراً، لابد أن أسجل هنا اعترافى أمام «الرب وشعبه» بأنى لم أكن أميناً فى نقل كل ما جاء فى أسفار العهد القديم مما يفيد شرك بنى إسرائيل خلال تاريخهم، فالكتاب

كله - وهو بين أيدينا - شهادة على ترسيخ الكفر والشرك والابتعاد عن الرب فى النفس الإسرائيلية.

وها قد رأينا جانباً من أفعالهم مع الرب وقد فعل ما فعل منذ أن كان « أبرام تائهاً »، وحتى احتلوا الأرض ودمروها وأبادوا أهلها وسكانها، فهل يعكس ذلك كله خصائص الشخصية الإسرائيلية ؟!

(ب) عصيان الأنبياء وقتلهم

إذا كانت النبوة هى إحدى سمات الديانات التوحيدية بوجه عام، فإنها تعتبر من أهم الظواهر الدينية فى اليهودية على وجه الخصوص، إذ هى المفتاح الحقيقى لفهم هذه الديانة التى وصلتنا من خلال كتابات الأنبياء. ولقد سبق وأن أشرت إلى أن كثرة أنبياء بنى إسرائيل تعتبر دلالة واضحة على كثرة الخروج عن الخط التوحيدى والذى تمثل فى ردة اليهود، وعودتهم إلى عبادة ما سبق وإن عرضت له فى الحديث عن التوحيد عندهم.

وإذا كان ظهور الأنبياء فى بنى إسرائيل ضرورة دينية، فقد كان أيضاً ضرورة تاريخية استلزمتها أحداث الانقسام السياسى الذى شهده هؤلاء القوم فى أعقاب تفسخ مملكتهم الوحيدة وانقسامها إلى مملكتين، ثم سقوط هاتين المملكتين، حيث كان ظهور الأنبياء فى ذلك الوقت ضرورة لسدّ العجز السياسى الواضح، وهو ما تعكسه أدوارهم من خلال أسفار العهد القديم.

ولم يكن العاملان السابقان وحدهما من موجبات النبوة، فقد كانت هناك تغيرات اجتماعية واقتصادية فى أعقاب تأسيس مملكة داود وسليمان، وتغير البنية الاجتماعية لبنى إسرائيل، وما أتبع ذلك من التحول القبلى المرتكز على الدين، إلى مجتمع الدولة الذى فتح أبوابه أمام تأثيرات علمانية مختلفة. ولهذا رأينا دعوة الأنبياء توجه اهتمامها إلى جانب العدالة الاجتماعية والاقتصادية.

ومما يلفت الانتباه في اليهودية، أن أولئك الذين كان لهم دور بارز في تأسيس الديانة اليهودية لا يطلق عليهم لفظ الأنبياء في الغالب ولا يعدون منهم. فإبراهيم وإسحق ويعقوب ويوسف وموسى وهارون يحشرون في زمرة «الآباء» داخل التراث الديني اليهودي، الأمر الذي يخل بمفهوم النبوة حسب الفكر الإسلامي.

ويمكن حصر المهام النبوية في التراث اليهودي في الدعوة الواضحة للتوحيد ونبذ مظاهر الشرك التي تسربت إلى بني إسرائيل، والاتجاه الإصلاحي على شتى المستويات: دينية وسياسية واجتماعية، وتحويل الشعور الديني من مجرد العبادات والطقوس والقرابين إلى حركة إيجابية تشمل الحياة بأسرها، بالإضافة إلى البعد الأخلاقي المتمثل في ربط الدين بالأخلاق. [1]

وإذا أردنا تعريف النبوة حسب المفهوم الإسرائيلي فإننا نقدمه من خلال فيلسوفين يهوديين أولهما هو موسى بن ميمون (١٣٥ - ١٢٠٥) وقد تأثر بالفكر الإسلامي الذي عاش في كنفه، والذي يعكسه سفره الشهير دلالة الحائرين حيث يقول عن النبوة :

«اعلم أن حقيقة النبوة وماهيتها هو فيض يفيض من الله عز وجل بوساطة العقل الفعال على القوة الناطقة أولاً ثم على القوة المتخيلة بعد ذلك، وهذه هي أعلى مرتبة الانسان وغاية الكمال الذي يمكن أن يوجد لنوعه، وتلك الحالة هي غاية كمال القوة المتخيلة». [2]

وثاني الفيلسوفين هو باروخ سبينوزا (١٦٣٢ - ١٦٧٧) اليهودي المولود في امستردام، وهو يرى أن النبوة هي المعرفة اليقينية التي يوحي الله بها إلى البشر عن شئ ما، والأنبياء هم الذين يفسرون ما يوحي الله به لهم ولأمثالهم من الناس، الذين لا يقدرون على الحصول على معرفة يقينية به ولا يملكون إلا إدراكه بالإيمان وحده. [3]

١- محمد خليفة حسن، ظاهرة النبوة الإسرائيلية، ص ١٨.

٢- موسى بن ميمون القرطبي الاندلسي، دلالة الحائرين، عارضه بأصوله العربية والعبرية حسين أتاي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د.ت. ص ٤٠٠.

٣- سبينوزا، رسالة في اللاهوت والسياسة، ترجمة وتقديم حسن حنفي، مراجعة فؤاد زكريا والهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧١، ص ١٢٣.

ويحدد لنا الدكتور محمد خليفة حسن صفات وسمات النبوة فى بنى إسرائيل من خلال دراسته لظاهرة النبوة الإسرائيلية [١] فى نقاط محددة من خلال دور الأنبياء فى التاريخ اليهودى. هذه الصفات يمكن إيجازها فيما يلى :

١- الصفة التاريخية، حيث يتم اختيار النبى بصفة شخصية وبدون معرفة أو استعداد منه، فلا دور له فى وقوع الاختيار الإلهى عليه، ويؤكد هذه الصفة أن معظم أنبياء بنى إسرائيل قد ورد ذكرهم بالإسم فى بداية أسفارهم وبتحديد إلهى، بل إن هناك تحديد لمكان وزمان ودائرة نشاط النبى. [٢]

٢- الشعور الذاتى للنبى حيث يتجاذب النبى شعوران، أحدهما إيجابى يتمثل فى إحساسه بأنه مدعو من الله لأداء رسالته، والثانى سلبى ويتمثل فى خوف النبى وتردده فى قبول هذه الدعوة، ونتج عن هذا أن دعوات الأنبياء ورسالاتهم لم تكن مستمدة من رغباتهم ولا تعبيراً عن أغراضهم ومصالحهم. وهناك مواطن كثيرة فى العهد القديم تبين لنا الأعراض السيكلوجية للتجربة النبوية. [٣]

٣- المعاناة الشخصية للنبى، سواء فى علاقته مع ربه[٤]، أو فى علاقته مع قومه. [٥]

ومن ناحية أخرى فصل لنا الفيلسوف اليهودى موسى بن ميمون مراتب النبوة، ووضع أنبياء بنى إسرائيل حسب هذه المراتب التى بلغت عنده إحدى عشرة مرتبة، كما أفاض فى الحديث عن النبوة والأنبياء بحيث لا نعدم فى ذلك تأثيرات إسلامية واضحة. [٦]

١- محمد خليفة حسن، المرجع السابق، ص ٣٢ وما بعدها.

٢- أنظر على سبيل المثال بدايات أسفار إشعياء وهوشع وإرمياء وصفنيا وحزقيال وميخا وملاخى ويوئيل ونحميا وغيرهم.

٣- انظر على سبيل المثال : الخروج ٣ : ٢، ٦، ١٠، ١١، ١٢، والخروج ٤: ١٢، ١٣، ١٤ - ١٧، وإرمياء ١: ٤ - ٥ عاموس ٧ : ١٤، ٣: ٨.

٤- انظر فى ذلك إرمياء ١٧ : ١٥ - ١٨، ٢٠ : ٧، حزقيال ١ : ٢٨ حبقون ٨ : ٣ - ٤.

٥- انظر إشعياء ١ : ٢ - ٤، إرمياء ١ : ٦، ٢ : ٨.

٦- موسى بن ميمون، المرجع السابق، ص ٣٨٨ - ٤٥٥.

كان موقف بنى إسرائيل من أنبيائهم سلبياً بوجه عام، بالرغم من الدور الحيوى المهم الذى لعبه الأنبياء فى تاريخهم، فقد كانوا المحركين لكبريات الأحداث، ويكفى أن ننظر إلى أهم تحول سياسى واجتماعى فى تاريخ إسرائيل، وأعنى التحول إلى النظام الملكى، قد تم، واستمر لفترة من الزمن بمباركة ومؤازة الأنبياء.

ومع أن النبى صموئيل، كان من أبرز الأنبياء المؤثرين فى حياة بنى إسرائيل، واعترف به «جميع إسرائيل من دان إلى بئر سبع» (صموئيل أول ٣/ ٢٠)، إلا أنه قد واجه «مشاغبات» قومه ورفضهم لما يقول، ولم يستجيبوا لدعوته، وعصوه وعصوا إلهه معه (صموئيل أول ٨/ ٥ - ٧، ١٦)

لقد اتسمت مواقف بنى إسرائيل من أنبيائهم بسمتين بارزتين: الأولى انعكست من خلال رفضهم وعصيانهم والتمرد عليهم، بل وضربهم، والثانية تمثلت فى قتلهم لبعض أنبيائهم.

ومن شواهد الموقف الأول - على سبيل المثال - موقف أخاب من النبى إيليا، ومشاعره تجاهه، التى ظهرت بوضوح فى عبارته التالية:

«ولما رأى أخاب (ملك إسرائيل) إيليا قال له أخاب: أأنت هو مكدر إسرائيل» (ملوك أول ١٨/١٧)

وعلاوة على ذلك فإن الملك أخاب يرى فى النبى عدواً له:

«فقال أخاب لإيليا: هل وجدتنى يا عدوى» (ملوك أول ٢١/ ٢٠)

فالنبى إيليا فى نظر الملك أخاب سبب لغم وحزن وتكدير إسرائيل، وإذا كان هذا موقف الملك، الذى من المفروض أن يشكل مع النبى إرادة الرب، فإن موقف أفراد الشعب كان أسوأ، هذا الموقف الذى تعكسه واقعة المرأة صاحبة البيت مع إيليا النبى لما مرض ابنها، إذ خاطبت نبى الله قائلة:

«مالى ولك يا رجل الله. هل جئت إلىّ لتذكير إثمى وإماتة ابنى»
(ملوك أول ١٧/١٨)

كما أن الأنبياء قد يكذبون على الناس، ومن ثم لم يكن العامة أو حتى الملوك يصدقون كلامهم، بل قد يطلبون منهم الحلف على صدق كلامهم معهم :

فها هو الملك يقول للنبى ميخا : «كم مرة استحلفتك أن لا تقول لى إلا الحق باسم الرب». (ملوك أول ٢٢/ ١٦)

وهذه امرأة تخاطب النبى إليشع قائلة :

«لا يا سيدى رجل الله، لا تكذب على جاريتك». (ملوك ثان ٤/١٦)

فمع اعترافها بنبوة إليشع، إلا أنها تسأله عدم الكذب، وكأن احتمال كذب الأنبياء أمر وارد ومألوف.

وحالات عصيان الأنبياء عديدة فى تاريخ إسرائيل بوجه عام، واستحقوا عقاب الله وغضبه لمواقفهم هذه :

«فكان غضب على يهوذا وأورشليم لأجل إثمهم هذا، وأرسل إليهم أنبياء لإرجاعهم إلى الرب، وأشهدوا عليهم فلم يصغوا». (أخبار الأيام الثانى ٢٤/١٨ - ١٩)

لقد كان عصيان الأنبياء ورفض الانصياع لتعاليمهم الربانية هو ديدن بنى إسرائيل عبر عصورهم، وهذه قضية حسمها النبى إرمياء وأراحنا حين قال :

«فمن اليوم الذى خرج فيه آباؤكم من أرض مصر إلى هذا اليوم، أرسلت اليكم (هذا كلام الرب) عبيدى الأنبياء مبكراً كل يوم ومرسلاً. فلم يسمعوا لى، ولم يميلوا أذنهم، بل صلبوا رقابهم. أساءوا أكثر من آبائهم» (إرمياء ٧/٢٥ - ٢٦)

فمنذ خروج بنى إسرائيل من مصر إلى «هذا اليوم» أى زمن إرميا ء، وهم يعصون الرسل ولا يسمعون لهم، وهذه الفترة تقدر بنحو عدة قرون.

والسخرية والاستهزاء بالأنبيا ء، سوءة أخرى من سوءات بنى إسرائيل فى حق أنبيائهم :

«ثم صعد (النبى إيليا) من هناك إلى بيت إيل. وفيما هو صاعد فى الطريق إذ بصبيان صغار خرجوا من المدينة وسخروا منه وقالوا له : اصعد يا أقرع. اصعد يا أقرع». (ملوك ثان ٢/٢٣)

حتى الصبيان يسخرون من الأنبيا ء، وما كانوا ليفعلوا هذا لو لم يروا آباءهم يفعلون ذلك، ولا يقيمون للنبى حرمة، فهذا هو تصرف الآباء مع أنبياء الرب ورسله :

«فأرسل الرب إله آبائهم إليهم عن يد رسله مبكراً ومرسلاً لأنه شفق على شعبه وعلى مسكنه. فكانوا يهزأون برسل الله، ورذلوا كلامه، وتهاونوا بأنبيائه حتى ثار غضب الرب على شعبه حتى لم يكن شفاء». (أخبار الأيام الثانى ٢٦/١٥ - ١٦)

هكذا كان موقف الآباء من رسل الله وأنبيائه، الاستهزاء والتهاون، ولذلك استحقوا غضب الرب عليهم غضباً «لم يكن له شفاء».

وأقسى ما يمكن أن يفعل بنبى - ناهيك عن تكذيبه والاستهزاء به والسخرية منه - هو أن يضرب أو يقتل. وقد فعل بنو إسرائيل هذه الموبقات.

فمن شواهد وأدلة ضرب الأنبياء نجد :

«فتقدم صدقيا بن كنعنة وضرب ميخا» (وميخا نبى على نحو ما ذكر فى ملوك أول ٢٢/٨) **على الفك وقال : من أين عبر روح الرب منى ليكلمك».** (ملوك أول ٢٢/٢٤)

أما إرمياء النبى [1]، فقد كان له نصيب وافر من الضرب والإيذاء :

«فغضب الرؤساء على إرمياء، وضربوه، وجعلوه فى بيت السجن».
(إرمياء ١٥/٣٧)

«فأخذوا إرمياء وألقوه فى جب ملكيا ابن الملك الذى فى دار السجن ودلّوا إرمياء بحبال، ولم يكن فى الجب ماء، بل وحل، فغاص إرمياء فى الوحل». (إرمياء ٦/٣٨)

هكذا نجد نبياً يضرب على فكه، وآخر يضرب ويلقى به فى الوحل، دون أن يراعى هؤلاء الضاربون المسيئون حرمة النبى وكرامته.

ومن جرائم القتل، ما فعلته إيزابيل، إذ قتلت مائة من أنبياء الرب (ملوك أول ١٤/١٨)

وقد أدرك الأنبياء ذلك السلوك الشنيع، بل وأشاروا إلى تمكن هذه العادة القبيحة - قتل الأنبياء - من بنى إسرائيل.

يقول النبى إرمياء مخاطباً قومه :

«أكل سيفكم أنبياءكم كأسد مهلك». (ارمياء ٢/ ٣٠)

ويقول النبى نحميا واصفاً قومه :

«وعصوا وتمردوا عليك (على الرب) وطرحوا شريعتك وراء ظهورهم، وقتلوا أنبياءك الذين أشهدوا عليهم ليردوهم إليك ...» نحميا (٢٦/٩)

هكذا كان جزاء أنبياء الرب، الذين جاءوا ليردوا قومهم الضالين، وعلى هذا النحو كان مصيرهم، وعلى نحو ما صورنا كان سلوك الشخصية الإسرائيلية مع أنبيائها على مر التاريخ..

١- حول نبوة إرمياء فى بنى إسرائيل ومواقفهم تجاهه، انظر :

Nell, W., The Bible Story, Op. Cit., pp. 103 - 109.



الفصل الثالث

الأخلاق الفردية للشخصية الإسرائيلية



الأخلاق الفردية للشخصية الإسرائيلية

١- النفـــاق

النفاق ظاهرة تشير إلى إظهار الإنسان خلاف ما يبطن في شتى نواحي الحياة، وعلى هذا النحو، يمثل النفاق ضرباً من ضروب الكذب، إلا أنه يتميز عن سائر أنواع الكذب بأنه ينحط إلى دركات الكذب السفلى، ويلف في طياته - كلما تلوى - أشتاتاً من الجبن والصلف والخسة والصفاقة، كما يدعو إلى الحقد والبغضاء والحسد.

ومن أهم الفروق التي تميز النفاق عن سائر أنواع الكذب أنه يتضمن بالضرورة إيذاء الغير، بل ويهدف إليه، وأمره لا يقتصر على مجاراة الغرائز وإشباع الشهوات، وإنما يتطلب فنوناً من الصناعة وضروباً من التشكيل والتهيئة والمظاهر، ولا يصبح عادة إلا مع مرور الزمن عندما تتأصل له في النفس عقدة يعتمد عليها، وينطلق منها وإليها.[١]

ولكن، لماذا ينافق الإنسان؟!

لما كان الإنسان مخلوقاً مركباً متعدد النزعات والأحاسيس، تتجمع وتتراكم في نفسه الأفكار والخواطر والعواطف المتضاربة التي لا يجد تفسيراً مقبولاً لها، فإنه يعتمد إلى القيام بفعل ما، وقول ما يناقضه ويخالفه.

١- إبراهيم على سالم، النفاق والمنافقون، دار الشعب، القاهرة، ١٩٦٩، ص ٧.

وقد ينافق الإنسان بسبب إيمانه بشئ يرى ضرورة ستره، كالإيمان بعقيدة فاسدة أو بالرغبة فى سيطرة أو جاه أو سلطان.

وقد ينافق لا لإيمانه بشئ وإنما كنوع من الدعاية لنفسه، وهذه علة خبيثة اختص بها أقوام لا يؤمنون بأى شئ من حق أو خلق، ومن ثم فهم ينافقون دائماً فى كل أمورهم.[1]

ولكن، ما موقع النفاق من الشخصية الإسرائيلية ؟!، هذا ما سنراه فى الصفحات التالية.

تطالعنا الأوامر الأخلاقية فى سفر الخروج ١/٢٣ بنهى واضح وصريح عن مجاراة المنافقين، ومن ثم فإن النهى يشمل - ضمناً - عدم النفاق : **«لا تضع يدك مع المنافق»**.

لكن أحداث العهد القديم تقدم لنا العديد من صور نفاق إسرائيل مخالفين بذلك نص الخروج السابق.

وأبرز صور النفاق يقدمها لنا شاول فى معاملاته مع داود، على نحو ما يصف لنا سفر صموئيل الأول.

فلقد كان هم شاول وشغله الشاغل أن يتخلص من داود بأى شكل من الأشكال بعد أن شعر بمدى الخطر السياسى الذى يكمن وراء تلك الشخصية التى بدأت تسحب البساط من تحت أقدامه منذ أن تمكن داود من قتل جالوت الفلسطينى **«وحسن فى أعين جميع الشعب وفى أعين عبيد شاول أيضاً»**. (٥/١٨)

وتعددت محاولات شاول لقتل داود :

> **«فأشرع شاول الرمح وقال أضرب داود حتى إلى الحائط، فتحول داود من أمامه مرتين»**. (١٨//١١)

١- المرجع السابق، ص ٨.

وسعى إلى تعريض داود للقتل عن طريق إغرائه بزواجه من ابنته مقابل مهر غالٍ تمثل آنئذ في قتل مائتين من الفلسطينيين». (١٨/١٧ - ٣٠)

«وكلم شاول يوناثان ابنه وجميع عبيده أن يقتلوا داود» (١/١٩)

«والتمس شاول أن يطعن داود بالرمح حتى الحائط، ففر من أمام شاول فضرب الرمح إلى الحائط». (١٠/١٩)

«وأرسل شاول رسلاً إلى بيت داود ليراقبوه ويقتلوه في الصباح» (١١/١٩)

«ثم أرسل شاول الرسل ليروا داود قائلاً : اصعدوا به إليّ على الفراش لكي أقتله». (١٦/١٩)

وتعددت المحاولات من قبل شاول لقتل داود، لكن الأول كان إذا ما التقى وجهاً لوجه مع داود، بادر إلى نفاقه، وإظهار ما لا يبطنه :

«فلما فرغ داود من التكلم بهذا الكلام إلى شاول، قال شاول : أهذا صوتك يا ابني داود، ورفع شاول صوته وبكى».
(صموئيل أول ١٦/٢٤)

ومرة أخرى : **«عرف شاول صوت داود فقال : أهذا هو صوتك يا ابني داود».** (صموئيل أول ١٧/٢٦)

ويواصل شاول نفاقه فينادي داود قائلاً :

«ارجع يا ابني داود...» (صموئيل أول ٢١/٢٦)

وهكذا يستخدم شاول الألفاظ تارة **«ابني»**، والتمثيل **«البكاء»** تارة أخرى، وهو يسعى مع ذلك سعياً حثيثاً لقتل داود، زوج ابنته، لا لشئ سوى أن الشعب قد أحبه وتغنى به.

وقد أدرك النبى إشعياء انتشار وباء النفاق فى قومه، لذلك أخبرنا قائلاً :

«ولأجل ذلك لا يفرح السيد بفتيانه، ولا يرحم يتاماه وأرامله لأن كل واحد منهم منافق وفاعل شر». (اشعياء ٩/١٧)

وعمومية النفاق وذيوعه مفهوم من تعبير إشعياء : «كل واحد منهم»، بما لايدع مجالاً للشك فى التصاق صفة النفاق بالإسرائيليين.

ويؤكد لنا إشعياء اختصاص شعبه بالنفاق، وإدراك الرب لذلك، بل ومعاقبته لشعبه نظير نفاقهم، فقال على لسان الرب :

«ويل لأشور، قضيب غضبى، والعصا فى يدهم هى سخطى. على أمة منافقة أرسله، وعلى شعب سخطى أوصيه ...» (إشعياء ١٠/٥)

والنفاق هنا يضم «الأمة الإسرائيلية» كلها : أمة منافقة، هى عبارة توحى لنا بشيوع النفاق بين جميع أفراد إسرائيل.

أما النبى إرمياء، فيوضح لنا أحد مظاهر النفاق على النحو التالى :

«لذلك هكذا قال رب الجنود : هأنذا أنقيهم وأمتحنهم، لأنى ماذا أعمل من أجل بنات شعبى. لسانهم سهم قتال، يتكلم بالغش، بفمه يكلم صاحبه بسلام، وفى قلبه يضع له كميناً». (٩/٧ - ٨)

هكذا يرسم إرمياء صورة من صور نفاق الشخصية الإسرائيلية : يقول كلاماً مسالماً، ويضمر فى قلبه نصب الكمائن.

والنفاق ظاهرة مرضية، تصيب كثيراً من البشر، لكن تاريخ إسرائيل يمتلئ بمواقف ومظاهر النفاق، ولا نجد أمة على وجه الأرض، توصف من ربها ومختارها «بالنفاق الجماعى»، على نحو ما نجد فيما يتعلق بإسرائيل.

٢- الكـــذب

الكذب ظاهرة من مظاهر الحياة فى كثير من أشكاله وألوانه، وهو أنواع وفنون، قد يكون تافهاً يسيراً، وقد يكون خطراً عسيراً، ولا نعنى من ذلك أن الكذب ضرورة وواجب، لكنه حقيقة وواقع. والإنسان مخلوق من العدم، يدفعه دينه وإيمانه بالله إلى الحق المضئ، وتجذبه شكوك العدم إلى الباطل المظلم، والباطل من العدم ومظهره الكذب.

وللكذب أسباب يصعب حصرها، فقد يكون سعياً وراء مطلب، أو إشباعاً لشهوة الخيال. والمطلب قد يكون فائدة تعود على الكاذب، وقد يكون مجرد إيذاء الغير دون فائدة تجنى من وراء ذلك. [١]

وليس هناك فى اعتقادنا شرع أو خلق يبيح الكذب أو حتى يرتضيه أو يسكت عنه، وهو - حتى عند الكاذبين أنفسهم - أمر مكروه مذموم، فلا أظن أن هناك كاذباً يمكن أن يقول عن نفسه أنه كاذب، كما يقول الصادق أنه صادق، أو الشجاع أنه شجاع، وهذا فى حد ذاته دليل على مقت هذا الخلق وكراهيته.

والكذب فى «الصغائر» يقود إلى الكذب فى «الكبائر»، واعتياد الكذب ولو على سبيل المزاح يجعل المرء يألفه، ولا يفرق فيما بعد بين جده وهزله، وما من مجتمع ساد الكذب فيه وأصبح خلقاً لأفراده، وسمة لأعضائه، إلا وبات هذا المجتمع مكروهاً ممن يحيطون به، مشكوكاً فى ولائه وانتمائه.

وشرائع بنى إسرائيل - كشرائع سماوية فى أصلها - تذم الكذب، وتنهى عنه وتحذر منه، ويتضح ذلك جلياً مع بدايات العصر الموسوى، إذ جاء فى سفر الخروج ضمن أوامر الرب لشعبه :

«لا تقبل خبراً كاذباً». (١/٢٣)

«ابتعد عن كلام الكذب». (٧/٢٣)

١- ابراهيم على سالم، النفاق والمنافقون، المرجع السابق، ص ٥ - ٦.

فالأمر الأول ينهى عن قبول ما يسمعه المرء من أكاذيب، والثانى ينهى عن قول الكذب. فسماع الكذب وقوله أمران بغيضان مكروهان.

أما المزامير، فقد تناولت ظاهرة الكذب وعالجتها بسبل شتى، واستخدمت «الترهيب» كوسيلة لإبراز فداحة الكذب وخطورته وعقوبة أصحابه :

«لتبكم شفاه الكذب، المتكلمة على الصديق بوقاحة، بكبرياء واستهانة». (١٨/٣١)

«صن لسانك عن الشر، وشفتيك عن التكلم بالغش». (١٢/٣٤)

«لأن أفواه المتكلمين بالكذب تُسَدُّ» (١١/٦٣)

«المتكلم بالكذب لا يثبت أمام عينى». (٧/١٠١)

النصوص السابقة جميعها تحذر من الكذب وعواقبه. ففيها دعاء بالبكم على المتكلمين بالكذب على الصديقين، وفيها دعوة صريحة لصيانة اللسان والشفتين - وهى أعضاء الكلام الأساسية - ، وفيها تذكير بموقف الكاذبين أمام الرب.

ومع كل هذه الشواهد الناهية عن الكذب فى أسفار العهد القديم، فإن الشواهد على ارتكاب بنى إسرائيل له - بل وإدمانه - على شتى المستويات الاجتماعية، بل على مستوى الأنبياء، كثيرة بشكل يوحى بأن هذه الظاهرة قد أصبحت سمة وعلامة مميزة للشخصية الإسرائيلية.

وترجع بدايات الكذب فى التاريخ الإسرائيلى إلى عصر مبكر على نحو ما يستقى من النصوص.

فأول كذبة يسجلها لنا سفر التكوين حين طلب أبرام من امرأته ساراى أن تقول أمام المصريين أنها أخته لا زوجه، حتى يكون لهما خير، ويحيا أبرام، وقد كان ذلك منها، وكان لأبرام بسبب ذلك التصرف المشين «غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وأتن وجمال» (تكوين ١٢/١٠- ٢٠)

وثانى كذبة جاءت من قبل يعقوب - إسرائيل - وكانت فى إطار خطة احتيال على الأب العاجز اسحق، وبهدف «سرقة» البركة الإلهية من أخيه عيسو، وهذا نصها :

«فدخل إلى أبيه وقال يا أبى. فقال هأنذا. من أنت يا ابنى. فقال يعقوب لأبيه أنا عيسو بكرك. قد فعلت كما كلمتنى. قم اجلس وكل من صيدى لكى تباركنى نفسك. فقال إسحق لابنه ما هذا الذى أسرعت لتجد يا ابنى. فقال إن الرب إلهك قد يسر لى. فقال إسحق ليعقوب تقدم لأجسك يا ابنى. أأنت هو ابنى عيسو أو لا. فتقدم يعقوب إلى اسحق أبيه. فجسه وقال الصوت صوت يعقوب ولكن اليدين يدا عيسو. ولم يعرفه لأن يديه كانتا مشعرتين كيدى عيسو أخيه. فباركه. وقال هل أنت هو ابنى عيسو فقال أنا هو. فقال قدم لى لآكل من صيد ابنى حتى تباركك نفسى. فقدم له فأكل وأحضر له خمراً فشرب. فقال له إسحق أبوه تقدم وقبلنى يا ابنى. فتقدم وقبله فشم رائحة ثيابه وباركه. وقال انظر. رائحة ابنى كرائحة حقل قد باركه الرب. فليعطك الله من ندى السماء. ومن دسم الأرض. وكثرة حنطة وخمر. ليستعبد لك شعوب وتسجد لك قبائل. كن سيداً لإخوتك. وليسجد لك بنو أمك. ليكن لاعنوك ملعونين. ومباركوك مباركين». (تكوين ١٨/٢٧ - ٢٩)

وإذا ربطنا بين الواقعتين السابقتين وما سقناه فى مقدمتنا عن الكذب، وجدنا أن الهدف تحقيق فائدة للكاذب، وقد تحققت بالفعل «فوائد» لكل من أبرام ويعقوب من وراء ما كذباه.

وراحيل - زوج يعقوب وابنة خاله - تكذب على أبيها حتى تخفى ما سرقته من «الآلهة» :

«فدخل لابان خباء يعقوب وخباء ليئة وخباء الجاريتين ولم يجد. وخرج من خباء ليئة ودخل خباء راحيل. وكانت راحيل قد أخذت الأصنام ووضعتها فى حداجة الجمل وجلست عليها. فجسّ لابان كل الخباء ولم يجد - وقالت لأبيها لا يغتظ سيدى أنى لا أستطيع أن أقوم أمامك لأن علىّ عادة النساء، ففتش ولم يجد الأصنام».
(تكوين ٣١/٣٣ - ٣٥)

تلك نماذج مبكرة، وفردية، على وقائع الكذب فى تاريخ إسرائيل، وقد يتفق اثنان على الكذب، ويشهدا شهادة زور، مع أن الوصايا تجرم ذلك وتحرمه.

فقد استجاب رجلان من بنى بليعال لمؤامرة ايزابل، وشهدا كذباً وزوراً ضد نابوت اليزرعيلى، والنتيجة فى النص التالى :

«وأتى رجلان من بنى بليعال وجلسا تجاهه وشهد رجلا بليعال على نابوت أمام الشعب قائلين قد جدّف نابوت على الله وعلى الملك فأخرجوه خارج المدينة ورموه بحجارة فمات». (ملوك أول٢١/١٣)

افتراء من الرجلين وكذب، إذ قالا : جدف نابوت على الله وعلى الملك، ودفع نابوت ثمن كذبهما، فرجم ومات.

ومن الكذب الفردى والثنائى إلى «الكذب الجماعى»، وهو تواطؤ جمعى على الكذب من قبل كل إسرائيل، ونماذجه أكثر من العد والإحصاء.

ولعل إشعياء كان يشير إلى كذب قومه حين قال :

«وأنا ساكن بين شعب نجس الشفتين». (٦/٥)

فالشفتان - كما أشرت - عنصر أساسى فى عملية الكلام، والنجاسة هنا معنوية بالطبع، ولا تأويل لهما سوى أن المقصود من ذلك هو قول الكذب.

لقد كان إشعياء يعلم جيداً ما صار إليه ولاة شعبه من «إدمان» للكذب، ولهذا خاطبهم مقرعاً لهم قائلاً :

«لذلك اسمعوا كلام الرب يا رجال الهزء ولاة هذا الشعب الذى فى أورشليم ... لأننا جعلنا الكذب ملجأنا». (١٤/٢٨ - ١٥)

فاتخاذ الكذب ملجأ من قبل ولاة الشعب يعنى أنهم قد دأبوا على اقتراف هذا الإثم العظيم اعتقاداً منهم بأنه الملجأ والحصن الآمن لهم.

ويؤكد لنا إشعياء تمكن الكذب من شعبه فيقول :

«تعال الآن اكتب هذا عندهم على لوح وارسمه فى سفر ليكون لزمن آت للأبد إلى الدهور، لأنه شعب متمرد أولاد كذبة». (١٠-٩/٣٠)

ويخاطب إشعياء قومه مقرعاً لهم بسبب كذبهم، واستمرائهم لهذا الكذب فيقول :

«شفاهكم تكلمت بالكذب، ولسانكم يلهج بالشر». (٥٩ /٣)

ودلالة الفعل العبرى المترجم هنا بـ «يلهج» تفيد فى الحقيقة معنى الظلم والجور والإجحاف والضيم والحيف [1]، وكل هذه المعانى هى نتائج مترتبة على الكذب.

ويعترف قوم إشعياء بالكذب - ببجاحة - وتمكن هذا الداء من قلوبهم فيقولون :

«تعدينا وكذبنا على الرب، وحدنا من وراء إلهنا. تكلمنا بالظلم والمعصية. حبلنا ولهجنا من القلب بكلام كذب». (٥٩ / ١٣)

ويبدو أن داء الكذب قد استشرى فى أوصال إسرائيل زمن النبى إرمياء، حيث شن حملاته الضارية ضد هذا السلوك المشين، مبيناً لقومه بطلان الكذب وعدم جدواه فيقول لهم :

١- انظر : داڤيد سجيف، قاموس عبرى عربى، جـ٣ / ١٣٠٤.

«ها إنكم متكلمون على كلام الكذب الذى لا ينفع. أتسرقون وتقتلون وتزنون وتحلفون كذباً..» (٨/٧ - ٩)

ويصفهم فى موضع آخر فيقول :

«يمدون ألسنتهم كقسيهم للكذب». (٣/٩)

وتشبيه اللسان بالقوس هنا له مغزاه. فالقوس - كأداة قتال - يصيب عند استخدامه من يوجه إليه فى مقتل، وكذا الكذب.

ويقول أيضاً :

«علموا ألسنتهم التكلم بالكذب». (٥/٩)

والتعلم يكون عن عمد، ويفيد - فى نفس الوقت - احتراف المتعلم وإجادته لما تعلمه. لقد أصبح الكذب هدفاً ومقصداً يسعون إليه ويتعلمونه.

وسبط إفرايم من بنى إسرائيل قد أجاد هذا الفن الممقوت، وتصدى لهم النبى هوشع فقال :

«أفرايم : راعى الريح، وتابع الريح الشرقية. كل يوم يكثر الكذب والاغتصاب». (هوشع ١/١٢)

والريح الشرقية هنا رمز للباطل والتدمير [1]، وهما صفتان ترتبطان بشدة بكثرة الكذب والاغتصاب التى اعتاد عليها أهل هذا السبط وأفراده.

وقد اعتقد الإفرايمون الإسرائيليون أن هذا الكذب يفرح الملوك والرؤساء، إذ يكشف لنا هوشع عن ظنهم هذا قائلاً : **«بِشَرِّهم يفرحون الملك، وبكذبهم الرؤساء»** (هوشع ٣/٧)، ومن ثم استعذبوا الكذب للتقرب إلى الرؤساء زلفى.

١- انظر : ج. أ. هاجيانتونيو، «تفسير سفر هوشع»، فى : تفسير الكتاب المقدس، ٣٧٤/٤.

وإذا كانت نصوص الكتاب المقدس تمدنا بشواهد صادقة على كذب «الآباء» من أمثال أبرام ويعقوب، وكذب «الشعب» بعامة، فإنها تقدم لنا نمطاً جديداً من أنماط الكذب، إنه كذب الأنبياء.

ومما يميز تاريخ بنى إسرائيل بوجه عام كثرة أنبيائهم، ويرجع هذا إلى التدهور المستمر لعبادة الإله الواحد، والردة الدينية إلى عبادة الآلهة الأجنبية، كما يرجع ذلك أيضاً إلى العجز السياسى فى مراحل من تاريخ إسرائيل، إذ كانت مهام النبى الإسرائيلى : دينية وسياسية واجتماعية واقتصادية. [1]

ولقد ظهرت فئة من الإسرائيليين من مدعى النبوة كان من الصعب التمييز بينهم وبين الأنبياء الحقيقيين، وإن كانت نصوص العهد القديم ترسم لنا فى بعض المواضع علامات وضعها الحقيقيون للتعرف على الكذبة من خلال سلوكهم وأخلاقياتهم. (انظر ارمياء ٢٣/٩ - ١٥)

ولقد حدد لنا النبى الحقيقى إرمياء بعض المعالم الفارقة بين النبى الحقيقى والنبى الكاذب (٢٣/١٦) مثل الوحى، ونوعية النبوة وصدقها (٢٣/٢١- ٣٢)، كما يضع سفر ميخا كذلك بعض المعالم الفارقة بين الصنفين (ميخا ٣/٨).

وتسجل لنا الأسفار هجوم الأنبياء الحقيقيين على الكاذبين والرائين والحالمين والعرافين والمنجمين، وقد يكون النبى الكاذب جامعاً لكل هذه الصفات. [2]

ولسنا هنا بصدد مناقشة قضية النبوة الإسرائيلية، ولكننا نشير فقط - فيما يتعلق بموضوعنا وهو الكذب - إلى أن هذا الداء قد انتقل إلى مجال خطير، فيه افتراء على الرب ذاته.

١- انظر : محمد خليفة حسن، ظاهرة النبوة الإسرائيلية، المرجع السابق، ص ١٣ - ١٥.

٢- المرجع السابق، ص ٦٥.

ففى سفر (الملوك الأول ١٣/١١- ١٩) نجد نموذجاً لكذب الأنبياء، أو بتعبير أدق: مدعى النبوة من الإسرائيليين :

«فقال له أنا أيضاً نبى مثلك. وقد كلمنى ملاك بكلام الرب قائلاً : ارجع به معك إلى بيتك فيأكل خبزاً ويشرب ماء. كذب عليه». (١٣/١٨)

هذا نموذج للكذب فى مجال النبوة.

وفى موضع آخر نرى ملك إسرائيل يجمع أربعمائة نبى، يستشيرهم فى أمر قتال العدو (ملوك أول ٦/٢٢)، لكن الرب يجعل روح كذب فى أفواه جميع هؤلاء الأنبياء (ملوك أول ٢٣/٢٢)

ويشبه إشعياء هؤلاء الأنبياء الكذبة بالذَنَبِ لإسرائيل، ويتنبأ باقتلاعهم (إشعياء ٩/١٤- ١٥)

أما النبى إرمياء، فقد واصل المسيرة فى الهجوم على أنبياء الكذب وكشف أباطيلهم، وكيف أن الكهنة والشعب قد وافقوهم على شنائعهم :

«صار فى الأرض دَهَش وقشعريرة. الأنبياء يتنبأون بالكذب والكهنة تحكم على أيديهم وشعبى هكذا أحب. وماذا تعملون فى آخرتها». (إرمياء ٥/٣٠ - ٣١)

ويؤكد إرمياء على كذب الكهنة والأنبياء معاً فيقول :

«لأنهم من صغيرهم إلى كبيرهم كل واحد مولع بالربح، ومن النبى إلى الكاهن كل واحد يعمل بالكذب». (إرمياء ٦/١٣)

والكتبة كاذبون :

«كيف تقولون نحن حكماء وشريعة الرب معنا. حقا إنه إلى الكذب حولها قلم الكتبة الكاذب». (إرمياء ٨/٨)

والكذب هنا جد خطير، لأنه تحريف للشريعة الربانية، والافتراء فيها بالزيادة والنقصان.

والرب يحذر إرمياء من كذب فريق مدعى النبوة، فيخبره قائلاً :

«فقال الرب لى. بالكذب يتنبأ الأنبياء باسمى. لم أرسلهم ولا أمرتهم ولا كلمتهم. برؤيا كاذبة وعرافة باطل ومكر قلوبهم هم يتنبأون لكم». (١٤/١٤)

ويحذر إرمياء بدوره قومه من هؤلاء الأنبياء الكذبة فيقول :

«فلا تسمعوا لكلام الأنبياء الذين يكلمونكم قائلين لا تخدموا ملك بابل لأنهم إنما يتنبأون لكم بالكذب. لأنى لم أرسلهم يقول الرب بل هم يتنبأون باسمى الكذب لكى أطردكم فتهلكوا أنتم والأنبياء الذين يتنبأون لكم». (١٤/٢٧ - ١٥)

وقد كان لمدعى النبوة دور فى تضليل الشعب وغوايته، وقد تنبه إرمياء لذلك، وبين خطورة هذه الإدعاءات للناس فى مواضع عديدة من سفره. (انظر على سبيل المثال : ١٦/٢٧؛ ٢٨/ ١٥؛ ٢٩/٨-٩، ٣١- ٣٢).

ولم تكن ظاهرة «الكذب النبوى» قاصرة على عهد إشعياء وإرمياء، بل وجدنا كذلك فى زمن حزقيال (١٣/٦-٧)، وفى زمن زكريا (٢/١٠)، وهى تعكس مدى استفحال مرض الكذب، بحيث انتقل من مجرد أمور حياتية بسيطة، إلى الكذب على الرب، والتحريف فى شريعته، وتضليل الشعب.

وهنا تبرز خطورة الكذب ودوره فى الحياة الإسرائيلية، وتمكنه من نفوس الكثيرين من الإسرائيليين، وفى مختلف عصورهم وأيامهم.

٢- الخيانة والغدر

من العلامات البارزة فى تاريخ إسرائيل : الخيانة والغدر والتآمر. والقارئ للعهد القديم بشئ من التبصر والتؤدة، بإمكانه أن يميز بين ثلاثة أنواع من الخيانة والغدر.

الأول : خيانة الرب.

الثانى : خيانة القوم لأنفسهم وقومهم.

الثالث : خيانة الأغيار والآخرين.

ولما كانت أفظعها وأشنعها خيانة الرب، إذ هى مقدمة لما بعدها، فمن يخن ربه، لا ضير عليه أن يخون البشرية جمعاء، آثرت أن أبدأ بعرض شواهدها من النصوص العبرية المقدسة.

«فرأى الرب ورذل من الغيظ بنيه وبناته، وقال أحجب وجهى عنهم وانظر ماذا تكون آخرتهم. إنهم جيل متقلب، أولاد لا أمانة فيهم».
(تثنية ١٩/٣٢ - ٢٠)

فالرب كره شعبه المختار غيظاً مما فعلوه وارتكبوه فى حقه. فهم جيل متقلب، لا أمانة فيهم، أى دأبهم الخيانة والغدر.

والرب لا يتجنى على بنيه وبناته، فلم يرعَ بنو إسرائيل حرمات الرب، وتجسدت خيانتهم للرب فى سفر يشوع، عندما أخذ بعضهم - خلسة - من الغنائم مما هو خاص بالرب.

«وخان بنو إسرائيل خيانة فى الحرام». (يشوع ١/٧)

وتوضح الفقرات التالية فى نفس الإصحاح نوعية الخيانة :

«قد أخطأ إسرائيل، بل تعدوا عهدى الذى أمرتهم به، بل أخذوا من الحرام، بل سرقوا، بل أنكروا، بل وضعوا فى أمتعتهم،» (١١/٧)

هكذا كان تصرف إسرائيل مع الأمانة، وأى أمانة أعظم من أمانة الرب وعهده، ولذلك استحقوا العقاب الربانى، **«فلم يتمكن بنو إسرائيل للثبوت أمام أعدائهم»**. (١٢/٧).

وخيانة الرب والتعدى على عهوده ومواثيقه معلم بارز فى تاريخ إسرائيل، وكثيراً ما كانت هذه الخيانة سبباً فى عقاب الرب وغضبه على شعبه.

> **«فحمى غضب الرب على إسرائيل، وقال من أجل هذا أن هذا الشعب قد تعدوا عهدى الذى أوصيت به آباءهم ولم يسمعوا لصوتى»**. (قضاة ٢/ ٢٠)

والذى دفع الرب إلى إعلان غضبه على شعبه أفعال بنى إسرائيل تجاهه وخيانتهم له. فالفقرة السابقة للشاهد السابق تقول :

> **«وعند موت القاضى كانوا يرجعون ويفسدون أكثر من آبائهم بالذهاب وراء آلهة أخرى ليعبدوها ويسجدوا لها. لم يكفوا عن أفعالهم وطريقهم القاسية»**. (قضاة ١٩/٢)

فالشرك خيانة، والسجود لغير الله خيانة، والإفساد خيانة، وما أكثر هذا النوع البشع من الخيانة فى تاريخ إسرائيل.

ويؤكد إله إسرائيل على هذا السلوك المتمكن من الشخصية الإسرائيلية، وتطالعنا بياناته المتعددة فى سفر إرمياء على النحو التالى :

> **«حقاً، إنه كما تخون المرأة قرينها، هكذا خنتمونى يا بيت إسرائيل. يقول الرب»**. (إرمياء ٣/ ٢٠)

> **«لأنه خيانة خاننى بيت إسرائيل وبيت يهوذا. يقول الرب»**. (إرمياء ٥/ ١٠)

«... هكذا قال السيد الرب : فى هذا أيضاً جدَّف علىّ آباؤكم إذ خانونى خيانة». (إرمياء ٢٠/٢٧)

على نحو ما نرى، وتبغيضاً لخلق وسلوك الخيانة، يضرب الرب مثالاً على خيانة إسرائيل له، بخيانة المرأة لزوجها، وهى خيانة مستهجنة فى كل الأعراف والتقاليد..

ثم يبين الرب أن الخيانة قاسم مشترك بين مملكتى إسرائيل ويهوذا، فهى «خاصية» من خواصهم، وهم جميعاً فيها سواء.

كما يفيد الشاهد الثالث من سفر إرمياء، أن الخيانة متوارثة بين أفراد شعبه، فالآباء قد خانوا الرب مثلما فعل الأبناء.

واستخدام المصدر - قبل الفعل أو بعده - على نحو ما نجد فى الشاهدين الثانى والثالث من إرمياء، هو نوع من التأكيد، فى أسلوب العهد القديم، لذلك وجدنا الرب مرة يقول : **«خيانة خاننى»**، ومرة أخرى يقول **«خانونى خيانة»**، وكأنه بذلك يؤكد على تأصل ذلك السلوك فى الشخصية الإسرائيلية.

ونفس المعنى يعود للظهور فى سفر حزقيال، إذ جاء فيه على لسان العرب :

«لذلك هكذا قال السيد الرب ... فيحملون خزيهم وكل خيانتهم التى خانونى إياها عند سكنهم فى أرضهم مطمئنين ولا مخيف».
(٣٩/٢٥- ٢٦)

فالخيانة الإسرائيلية المغلظة للرب وجدناها فى عصر التثنية، وفى زمن يشوع والقضاة من بعده، ثم فى عهد إرمياء النبى، وكذلك فى عهد حزقيال.

ولا يعنى اقتصار خيانتهم على تلك العصور والأزمنة، بل هى سمة لازمتهم طوال تاريخ علاقاتهم بربهم، وإنما اخترت تلك الشواهد المتباعدة - زمنياً - عن بعضها، بهدف إثبات هذا السلوك المشين وتأصله وتمكنه من الشخصية الإسرائيلية.

أما خيانات بنى إسرائيل لأنفسهم، على المستوى الفردى والقبلى، فأمثلته عديدة وكثيرة.

فأهل شكيم يغدرون بأبيمالك :

«فترأس أبيمالك على إسرائيل ثلاث سنين، وأرسل الرب روحاً رديأ بين أبيمالك وأهل شكيم، فغدر أهل شكيم بأبيمالك».
(قضاة ٩/٢٢- ٢٣)

مع أن أهل شكيم هم أخوال أبيمالك. (قضاة ٩/١)

ومحاولات شاول للغدر بداود - زوج ابنته - أكثر من مرة، ليست سوى انعكاس للخيانة التى «تجذرت» فى شخصية شاول (انظر صموئيل أول ١٨/١١؛ ١٩/١ وغيرها).

ولم يكن شاول وحده الخائن الغادر المتآمر، إذ وجد من قومه من هو على شاكلته وخلقه :

«وقال أخيتوفل لأبشالوم دعنى انتخب اثنى عشر ألف رجل وأقوم وأسعى وراء داود هذه الليلة. فآتى عليه وهو متعب ومرتخى اليدين فأزعجه فيهرب كل الشعب الذى معه وأضرب الملك وحده. وأرد جميع الشعب إليك. كرجوع الجميع هو الرجل الذى تطلبه فيكون كل الشعب فى سلام. فحسن الأمر فى عينى أبشالوم وأعين جميع شيوخ إسرائيل». (صموئيل الثانى ١٧/١- ٥٢)

وأبشالوم ليس بآمن من أخيتوفل أو شاول. فالخيانة متمكنة - كذلك - من شخصيته :

«فأوصى أبشالوم غلمانه قائلاً انظروا. متى طاب قلب أمنون بالخمر وقلت لكم اضربوا أمنون فاقتلوه. لا تخافوا. أليس أنى أنا أمرتكم. فتشددوا وكونوا ذوى بأس».

بقى أن نشير إلى أن «الخائن» أبشالوم، هو أخ لأمنون «المتآمر عليه». وهكذا كانت الشخصية الإسرائيلية.

أما يوآب، قائد جيش داود، فقد كلف أحد أتباعه وهو «عماسا» بجمع رجال يهوذا فى ثلاثة أيام، لكن عماسا تأخر عن الميقات الذى عينه يوآب له. لم يعص أمر القائد، وإنما تأخر لسبب غير معلوم فى القصة. وكان يمكن محاكمته، أو حتى قتله، فلا اعتراض إن كان هناك مبرر لذلك.

لكن البشاعة التى انتهت بها حياة عماسا على يد يوآب، لا يمكن أن تتواءم مع ألفاظ الخيانة والغدر والتآمر، لكن مما يؤسف له أننا لا نجد فى ألفاظ اللغة ما نعبر به عن موقف يوآب إلا أن نورده تحت صفة «الخيانة».

تحرك يوآب ومعه رجاله، والتقى بهم عماسا فى جبعون :

> **«وكان يوآب متنطقاً على ثوبه الذى كان لابسه وفوقه منطقة سيف فى غمده مشدودة على حقويه فلما خرج اندلق السيف. فقال يوآب لعماسا أسالم أنت يا أخى. وامسكت يد يوآب اليمنى بلحية عماسا ليقبله. وأما عماسا فلم يحترز من السيف الذى بيد يوآب فضربه فى بطنه فدلق أمعاءه على الأرض ولم يثن عليه فمات».**
> (صموئيل الثانى ٢٠/٨ - ١٠)

هكذا يخدع يوآب عماسا بلين القول **«أسالم أنت يا أخى»** وطيب الفعل **«وأمسكت يد يوآب اليمنى بلحية عماسا ليقبله»**، لكن يوآب يتخلص من عماسا غيلة وغدراً وخيانة، فيضربه بالسيف فى بطنه، ويدلق أمعاءه على الأرض.

ونساء إسرائيل بارعات فى التخطيط بهدف الخيانة والغدر والتآمر. هكذا تخبرنا أسفار العهد القديم من خلال قصة ايزابل امرأة أخاب ملك السامرة. ونسوق القصة هنا كاملة لنستخلص منها العبر والسمات المميزة للشخصية الإسرائيلية :

وحدث بعد هذه الأمور أنه كان لنابوت اليزرعيلى كرم فى يزرعيل بجانب قصر أخاب ملك السامرة. فكلم أخاب نابوت قائلا أعطنى كرمك فيكون لى بستان بقول لأنه قريب بجانب بيتى فأعطيك عوضه كرماً أحسن منه أو إذا حسن فى عينيك أعطيتك ثمنه فضة. فقال نابوت لأخاب حاشا لى من قبل الرب أن أعطيك ميراث آبائى. فدخل أخاب بيته مكتئباً مغموماً من أجل الكلام الذى كلمه به نابوت اليزرعيلى قائلاً لا أعطيك ميراث آبائى. واضطجع على سريره وحول وجهه ولم يأكل خبزاً. فدخلت إليه إيزابل امرأته وقالت له لماذا روحك مكتئبة ولا تأكل خبزا. فقال لها لأنى كلمت نابوت اليزرعيلى وقلت له أعطنى كرمك بفضة وإذا شئت أعطيتك كرما عوضه فقال لا أعطيك كرمى. فقالت له إيزابل أأنت الآن تحكم على إسرائيل. قم كل خبزاً وليطب قلبك. أنا أعطيك كرم نابوت اليزرعيلى. ثم كتبت رسائل باسم آخاب وختمتها بخاتمه وأرسلت الرسائل إلى الشيوخ والأشراف الذين فى مدينته الساكنين مع نابوت. وكتبت فى الرسائل تقول. نادوا بصوم وأجلسوا نابوت فى رأس الشعب. وأجلسوا رجلين من بنى بليعال تجاهه ليشهدا قائلين قد جدفت على الله وعلى الملك. ثم أخرجوه وارجموه فيموت. ففعل رجال مدينته الشيوخ والأشراف الساكنون فى مدينته كما أرسلت إليهم إيزابل كما هو مكتوب فى الرسائل التى أرسلتها إليهم. فنادوا بصوم وأجسلوا نابوت فى رأس الشعب. وأتى رجلان من بنى بليعال وجلسا تجاهه وشهد رجلا بليعال على نابوت أمام الشعب قائلين قد جدف نابوت على الله وعلى الملك. فأخرجوه خارج المدينة ورجموه بحجارة فمات. وأرسلوا إلى إيزابل يقولون قد رجم نابوت ومات. ولما سمعت إيزابل أن نابوت قد رجم ومات قالت

إيزابل لأخاب قم رث كرم نابوت اليزرعيلي الذي أبى أن يعطيك إياه بفضة لأن نابوت ليس حياً بل هو ميت. ولما سمع أخاب أن نابوت قد مات قام أخاب لينزل إلى كرم نابوت اليزرعيلي ليرثه.

فكان كلام الرب إلى إيليا التشبي قائلاً قم انزل للقاء أخاب ملك إسرائيل الذي في السامرة. هو ذا هو في كرم نابوت الذي نزل إليه ليرثه. وكلمه قائلاً هكذا قال الرب هل قتلت وورثت أيضاً. ثم كلمه قائلاً هكذا قال الرب في المكان الذي لحست فيه الكلاب دم نابوت تلحس الكلاب دمك أنت أيضاً. فقال أخاب لإيليا هل وجدتني يا عدوي. فقال قد وجدتك لأنك قد بعت نفسك لعمل الشر في عيني الرب. هأنذا أجلب عليك شراً وأبيد نسلك وأقطع لأخاب كل بائل بحائط ومحجوز ومطلق في إسرائيل. وأجعل بيتك كبيت يربعام بن نباط وكبيت بعشا بن أخيا لأجل الإغاظة التي أغظتني وجعلك إسرائيل يخطئ. وتكلم الرب عن إيزابل أيضاً قائلاً إن الكلاب تأكل إيزابل عند مترسة يزرعيل. من مات لأخاب في المدينة تأكله الكلاب ومن مات في الحقل تأكله طيور السماء. ولم يكن كأخاب الذي باع نفسه لعمل الشر في عيني الرب الذي أغوته إيزابل امرأته. ورجس جداً بذهابه وراء الأصنام حسب كل ما فعل الأموريون الذين طردهم الرب من أمام بني إسرائيل». (ملوك أول ٢١/٢٦)

هكذا كانت قصة إيزابل وآخاب مع نابوت اليزرعيلي، ومنها نستخلص ما يلي :

١- طمع أخاب، ملك إسرائيل، في كرم واحد غيره.

٢- رفض نابوت التنازل عن حقه وميراثه، تمسكاً بالتشريع الإلهي الذي ينظم ميراث بني إسرائيل، والوارد في اللاويين ٢٥/٢٣ - ٢٨.

٣- تدخل إيزابل زوجة أخاب فى شئون إدارة المملكة.

٤- تدبير مؤامرة خسيسة للتخلص من نابوت.

٥- استجابة شيوخ وأشراف مدينة نابوت ومشاركتهم فى مؤامرة إيزابل.

٦- موافقة أخاب على كل خيوط المؤآمرة.

وحتى نتفهم القصة - بعد أن أدركنا ما فيها من خيانة وغدر - نشير إلى أن أخاب كان يشتهى ضم كرم نابوت إلى ممتلكاته وأن يحوله إلى حقل خضروات، ولكن الكرم لا يتحول إلى حقل خضروات تحولاً طبيعياً مناسباً فى رأى نابوت، الذى رد على الملك رداً دينياً رافضاً طلبه، إذ جاء فى اللاويين ٢٥/٢٣ ما يمنع التصرف فى الأرض **«والأرض لا تباع البتة»**. لكن إيزابل، عيرت زوجها قائلة : **«أأنت الآن تحكم على إسرائيل»**، فهى تفهم من الملك امتلاك الأرض ومن عليها، ووعدته بالحصول على الكرم، وحاكت مؤامرتها المبنية على الخداع والكذب، واستجاب لها ضعاف النفوس من قومها، ليقتل نابوت وآله، حتى لا يبقى من يرث الأرض، وتعود إلى أخاب.

هذا نموذج من نماذج الخيانة الإسرائيلية - الإسرائيلية، وفيه من البشاعة ما تأباها كل نفس مستقيمة.

وهاك نموذج آخر للخيانة والغدر والتآمر والتعاهد على القتل، ومشاركة النساء الإسرائيليات فى هذا كله :

> **«فلما رأت عثليا أم أخزيا أن ابنها قد مات قامت فأبادت جميع النسل الملكى. فأخذت يهوشبع بنت الملك يورام أخت أخزيا يوآش بن أخزيا وسرقته من وسط بنى الملك الذين قتلوا هو ومرضعته من مخدع السرير وخبأوه من وجه عثليا فلم يقتل. وكان معها فى بيت الرب مختبئاً ست سنين. وعثليا مالكة على الأرض. وفى السنة السابعة أرسل يهويا داع فأخذ رؤساء مئات الجلادين والسعاة**

وأدخلهم إليه إلى بيت الرب وقطع معهم عهداً واستحلفهم فى بيت الرب وأراهم ابن الملك. وأمرهم قائلاً هذا ما تفعلونه. الثلث منكم الذين يدخلون فى السبت يحرسون حراسة بيت الملك. والثلث على باب سور والثلث على الباب وراء السعاة فتحرسون حراسة البيت للصد. والفرقتان منكم جميع الخارجين فى السبت يحرسون حراسة بيت الملك. ويحيطون بالملك حواليه كل واحد سلاحه بيده ومن دخل الصفوف يقتل، وكونوا مع الملك فى خروجه ودخوله. ففعل رؤساء المئات حسب كل ما أمر به يهوياداع الكاهن وأخذوا كل واحد رجاله الداخلين فى السبت مع الخارجين فى السبت وجاءوا إلى يهوياداع الكاهن. فأعطى الكاهن لرؤساء المئات الحراب والأتراس التى للملك داود التى فى بيت الرب. ووقف السعاة كل واحد سلاحه بيده من جانب البيت الأيمن إلى جانب البيت الأيسر حول المذبح والبيت حول الملك مستديرين. وأخرج ابن الملك ووضع عليه التاج وأعطاه الشهادة فملكوه ومسحوه وصفقوا وقالوا ليحى الملك.

ولما سمعت عثليا صوت السعاة والشعب دخلت إلى الشعب إلى بيت الرب ونظرت وإذا الملك واقف على المنبر حسب العادة والرؤساء ونافخو الأبواق بجانب الملك وكل شعب الأرض يفرحون ويضربون بالأبواق. فشقت عثليا ثيابها وصرخت خيانة خيانة. فأمر يهوياداع الكاهن رؤساء المئات قواد الجيش وقال لهم أخرجوها إلى خارج الصفوف والذى يتبعها اقتلوه بالسيف. لأن الكاهن قال لا تقتل فى بيت الرب. فألقوا عليها الأيادى ومضت فى طريق مدخل الخيل إلى بيت الملك وقتلت هناك». (ملوك ثان ١١/ ١- ١٦)

المفسرون [1] لا يقفون على دواقع عثليا التى جعلتها تقوم بكل ما عملته ولا يعرفون ما كانت تهدف إليه، كما يقرون بتعقيد هذه المؤامرة لكثرة المشاركين فيها، وليس بالإمكان إقرار مصداقية القصة فى رأيهم، وما يعنينا هنا هو «روح الخيانة» المتغلغلة فى القصة وأبطالها.

والإصحاح الخامس عشر من سفر الملوك الثانى يقص علينا عدة حالات من الخيانة بين الإسرائيليين وبعضهم على النحو التالى :

* شالوم بن يابيش يفتن على زكريا بن يربعام ملك إسرائيل فى السامرة، ويقتله ويملك عوضاً عنه. ١٥/١٠.

* ومنحيم بن جادى لا يدع شالوم بن يابيش يهنأ بالملك سوى شهر واحد، ويفتن عليه ويقتله ويتملك عوضاً عنه. ١٥/١٧ - ١٥.

* وفقح بن رمليا يفتن على فقحيا بن منحيم، ملك إسرائيل فى السامرة ويقتله فى قصر بيت الملك مع أرجوب ومع أريه ومعه خمسون رجلاً من بنى الجلعاديين، ويتملك عوضاً عنه. ١٥/٢٢ - ٢٥.

* وهوشع بن أيلة يفتن على فقح بن رمليا ويقتله ويملك عوضاً عنه. ١٥/ ٣٠

وهكذا تتوالى الفتن والخيانات والمؤآمرات، لترسم لنا بعداً هاماً من أبعاد الشخصية الإسرائيلية، وهو الخيانة، خيانة الأهل، بعد خيانة الرب.

وطالما استعذب الإسرائيليون خيانة ربهم وأهلهم، فلا غرو أن يخونوا الأغيار.

وقد وجدنا خيانة أولاد يعقوب لحمور وشكيم، حيث أتوا على المدينة بأمن، وأهلها يتوجعون من آلام الختان حسب رغبة أولاد يعقوب ليتم التزاوج بين شكيم وابنة يعقوب.

١- هـ.ل. أليسون، «تفسير سفرى الملوك الأول والثانى» فى : تفسير الكتاب المقدس، جـ٢/٢٢٦-٢٢٧.

لكن الخيانة تلعب دورها، ويقتل أولاد يعقوب «كل ذكر»، في أبشع عملية «خيانة تآمرية» سجلها لنا سفر التكوين. ٣٤/٢٥- ٢٦.

والمطّلع على تاريخ بنى إسرائيل فى مصر، يستطيع - من خلال نصوص العهد القديم- أن يدرك السبب الحقيقى وراء اضطهاد فرعون مصر، و كراهية المصريين لبنى إسرائيل : إنها الخيانة.

«ثم قام ملك جديد على مصر لم يكن يعرف يوسف. فقال لشعبه هو ذا بنو إسرائيل شعب أكثر وأعظم منا. هلم نحتال لهم لئلا ينموا فيكون إذا حدثت حرب أنهم ينضمون إلى أعدائنا ويحاربوننا ويصعدون من الأرض». (خروج ١/٨- ١٠)

واضح من الشاهد السابق، أن المصريين كانوا يعرفون أن من طباع بنى إسرائيل الخيانة والتآمر، فلا يمكن لفرعون مصر وأتباعه أن يصدروا هذا الحكم ما لم تكن هنا «صحيفة جنائية» ذات «سوابق» تآمرية.

لقد ركز الباحثون والدارسون دائماً على اضطهاد بنى إسرائيل فى مصر، ولم ينتبه هؤلاء - وربما لم يجرؤ أحدهم على ذلك - إلى أسباب الاضطهاد المصرى، فلم أجد - بالفعل - مفسراً، إسرائيلياً أو غير إسرائيلى يبحث بموضوعية «أخلاقيات إسرائيل» فى مصر. فالكراهية المصرية للإسرائيليين لابد وأن لها أسباباً، ومن أسبابها التى تفهم من الشاهد السابق : الانضمام إلى الأعداء ومحاربة أهل مصر الذين يعيشون بين ظهرانيهم.

٤- الزنــــا

لا توجد شريعة - سماوية كانت أو وضعية - تبيح الزنا، أو تحث عليه، بل لا توجد شريعة لم تنبه عنه، وتغلظ عقوبته.

ولذلك رأينا وصايا الخروج تحذر - مبكرة - من الزنا، وتنهى عنه نهياً حاسماً: **«لا تزن»** خروج ١٥/٢٠، كما تحاول تضييق الخناق عليه بالنسبة للجو العائلي القبلي آنذاك، حيث يأتي النهي الرباني واضحاً: **«لا تشته امرأة قريبك...»** خروج ١٧/٢٠.

وتأتي شرائع اللاويين محرمة الزنا ومصرحة بأغلظ العقوبات لمرتكبيه، ألا وهي عقوبة القتل، وإن كانت هذه الشرائع في إطار وقوع جريمة الزنا بين الأقارب، أو مع المحرمات، ولعلنا نلتمس لهذه «المحلية الجنائية» عذراً، إذ لم يكن الإسرائيليون بعد قد احتكوا بالأمم الأخرى، ولهذا جاء النهي عن الزنا هنا في مرحلة معينة من تاريخ الإسرائيليين.

> **«وإذا زنى رجل مع امرأة، فإذا زنى مع امرأة قريبة فإنه يقتل الزاني والزانية. وإذا اضطجع رجل مع امرأة أبيه فقد كشف عورة أبيه. إنهما يقتلان كلاهما. دمهما عليهما. وإذا اضطجع رجل مع كنته. فإنهما يقتلان قد فعلا فاحشة. دمهما عليهما».** (لاويين ١٠/٢٠-١٢)

فالزنا هنا فاحشة، وإن كنا لا نفهم من النصوص تحريمه أو وصفه بالفاحشة لذاته، وإنما يفهم أن التحريم أو «التفحيش» هنا لوقوعه مع امرأة القريب أو امرأة الأب أو مع الكنة (زوجة الابن).

وعموماً، وحتى لو كان الأمر قاصراً على تلك الحالات، فهي من الممنوعات وعقوبتها القتل.

وتصرح نصوص التثنية علناً بعقوبة الزنا :

«وإذا وجد رجل مضطجعاً مع امرأة زوجة بعل يقتل الاثنان الرجل المضطجع مع المرأة والمرأة». (٢٢/٢٢).

«وإذا كانت فتاة عذراء مخطوبة لرجل فوجدها رجل فى المدينة واضطجع معها. فأخرجوهما كليهما إلى باب تلك المدينة وارجموهما بالحجارة حتى يموتا». (٢٢/٢٣)

وتأتى صورة رائعة، تبث فى النفس هلعاً وذعراً من ارتكاب هذه الفاحشة، هذا نصها :

«لأنه بسبب امرأة زانية يفتقر المرء إلى رغيف خبز، إمرأة رجل آخر تقتنص النفس الكريمة. أيأخذ انسان ناراً فى حضنه ولا تحترق ثيابه؟! أو يمشى إنسان على الجمر ولا تكتوى رجلاه ؟! هكذا من يدخل على امرأة صاحبه». (الأمثال ٦/٢٦- ٢٩)

ومع أن للزنا مفهوماً آخر فى نصوص العهد القديم، وهو الانحراف العقدى والشرك بعبادة الإله وعبادة آلهة الأمم الأخرى [١]، وهو النموذج المعنى من لفظ الزنا فى نصوص كثيرة، وبخاصة فى عصر الانقسام، إلا أننا هنا سننظر إلى النص على حقيقته اللفظية، إذ يشير إلى عواقب جريمة الزنا التى تجلب الفقر على مرتكبها، كما يكتوى المرء بنيرانها تماماً كمن يحتضن ناراً أو يمشى على جمر ملتهب.

إن الفقر بغيض كريه، وفى الوعيد به زجر وترهيب من الزنا.

وفى النار ألم وعذاب، وهى أشد ما يخوِّف به المرء. ولا أعتقد أن عاقلاً يتخيل أن فى حضنه ناراً، وتحت أقدامه جماراً، ولا يفر هارباً للنجاة من الاحتراق.

١- حول هذا المفهوم فى العهد القديم، انظر : شفيق مقار، الجنس فى التوراة وسائر العهد القديم، دار يعرب للنشر والتوزيع، دمشق، ١٩٩٨، ص ٤١.

نعم، إنها عملية تخويف وترهيب من الزنا، لكنها - للأسف - اختتمت بما لا يدعنا نفهم أن تجريم الزنا وتحريمه لذاته وفى ذاته، سواء أكان مع الأقارب أم مع الأغيار : «هكذا من يدخل على امرأة صاحبه».

فهل تعنى هذه الفقرة أن هذا العقاب خاص بمن يدخل على امرأة صاحبه، أما الزنا بأى امرأة أجنبية فلا يستوجب مثل هذه العقوبات ؟!

لاشك أن هذه العبارة الأخيرة «إضافة» من تلك «الإضافات العنصرية» التى حولت الشريعة الأصلية إلى مجرد قضايا محلية. هذه الإضافات التى سلبت معنى القيمة الأخلاقية المجردة فى كثير من النصوص ذات الطابع الأخلاقى فى العهد القديم.

على أية حال، فإن الزنا حرام، وعقوبته القتل، ومرتكبه إنما يلقى بنفسه فى التهلكة.

فماذا عن إسرائيل - بعد ذلك كله - وجريمة الزنا،، مع الأقارب والمحارم، أو مع الأجانب والأغيار ؟!

فى بداية مبكرة من تاريخ بنى إسرائيل نجد واقعة زنا كريهة يرتكبها ابن يعقوب البكر - رأوبين - مع بلهة سُرِّية أبيه، وأم أخويه دان ونفتالى :

> **«ثم رحل إسرائيل (يعقوب) ونصب خيمته وراء مجدل عِدْر. وحدث إذ كان إسرائيل ساكناً فى تلك الأرض أن رأوبين ذهب واضطجع مع بلهة، سرية أبيه، وسمع إسرائيل».** (تكوين ٣٥/٢١- ٢٢)

ولم تحدثنا الفقرات السابقة أو اللاحقة لهذه القصة عن أية عقوبات طبقت على هذا الزانى، ولم نجد تعليقاً فى النصوص على الواقعة المخزية : رجل يزنى بامرأة أبيه وأم أخوته !

ولكن يبدو أن هذه الخطيئة المستفحشة كانت لهدف تاريخي واعتاد كتّاب العهد القديم توظيفها للخروج من «المأزق» التي يقع فيها العهد القديم.

فرأوبين على نحو ما تشير النصوص هو الابن البكر ليعقوب (تكوين ٢٩/٣١)، ولسبب ما، كان لابد من تجريده من بكوريته، والتجريد من البكورية مسألة ذات طابع هزلي في أسفار العهد القديم، و«أهزل» صورها يتمثل في بيع عيسو بن اسحق البكر لبكوريته ليعقوب «المحتال» مقابل «كسرة خبز وطبخة عدس» (تكوين ٣٥/٣٣).

لهذه الخطيئة، نجد يعقوب يسحب حق البكورية من رأوبين بعد عدة إصحاحات عندما جمع أولاده لينبئهم بما يصيبهم في آخر الأيام :

> **«اسمعوا يا بني يعقوب، واصغوا إلى إسرائيل أبيكم، رأوبين : أنت بكري، قوتي وأول قدرتي، فضل الرفعة وفضل العز. فائراً كالماء لا تتفضل. لأنك صعدت على مضجع أبيك. حينئذ دنسته. على فراشي صعد».** (تكوين ٤٩/١-٤)

يقول كيفن في تفسير هذه الفقرات : «لا تتفضل» : إن الفعل هو في صيغة النهي ومعناه حرمان رأوبين من بركات البكورية. [١]

حتى وإن كان الحرمان من البكورية هنا عقاباً على جريمة الزنا بالمحارم، فإن النص لا يشير إلى وجود تشريع حاسم لمثل هذه الجريمة. فماذا لو كان الزاني ليس بكراً ؟!

جريمة أخرى من جرائم الزنا بالمحارم يسجلها لنا سفر التكوين، وطرفاها يهوذا بن إسرائيل، وثامار زوجة ابنه المتوفى «عير».

والقصة فيها تحايل من ثامار التي رفض أونان الزواج منها بعد وفاة أخيه، وطلب يهوذا منها أن تنتظر وتقعد أرملة في بيت أبيها حتى يكبر «شيلة» بن يهوذا، لكن ثامار انتهزت فرصة موت حماتها، وحاكت مؤامراتها على النحو التالي :

١- أ.ن. كيفن : «تفسير سفر التكوين» في : تفسير الكتاب المقدس، ٢٠٩/١.

«ولما طال الزمان ماتت ابنة شوع امرأة يهوذا. ثم تعزى يهوذا فصعد إلى جُزار غنمه إلى تمنة هو وحيرة صاحبة العدلامى. فأخبرت ثامار وقيل لها هو ذا حموك صاعد إلى تمنة ليجز غنمه، فخلعت عنها ثياب ترملها وتغطت ببرقع وتلفعت. وجلست فى مدخل عينايم التى على طريق تمنة. لأنها رأت أن شيلة قد كبر وهى لم تعط له زوجة. فنظرها يهوذا وحسبها زانية. لأنها كانت قد غطت وجهها. فمال إليها على الطريق وقال هاتى أدخل عليك. لأنه لم يعلم أنها كنته. فقالت ماذا تعطينى لكى تدخل على. فقال إنى أرسل جدى معزى من الغنم. فقالت هل تعطينى رهناً حتى ترسله. فقال ما الرهن الذى أعطيك. فقالت خاتمك وعصابتك وعصاك التى فى يدك. فأعطاها ودخل عليها. فحبلت منه. ثم قامت ومضت وخلعت عنها برقعها ولبست ثياب ترملها». (تكوين ٣٨/١٢-١٩)

ولا تذكر لنا النصوص أية عقوبة لهذه الواقعة، بل تذكر لنا فقط ثمار زنا «ثامار»، ولادة توأمين : فارص وزارح (تكوين ٣٨/٢٧ - ٣٠).

والملك داود - أهم رموز تاريخ إسرائيل - يزنى بامرأة أحد قادة جيشه، وهى بتشبع بنت اليعام امرأة أوريا الحثى، وقصتها على النحو التالى :

«وكان فى وقت المساء أن داود قام عن سريره وتمشى على سطح بيت الملك فرأى على السطح امرأة تستحم وكانت المرأة جميلة المنظر جداً. فأرسل داود وسأل عن المرأة فقال واحد أليست هذه بتشبع بنت اليعام امرأة أوريا الحثى. فأرسل داود رسلاً وأخذها فدخلت إليه فاضطجع معها وهى مطهرة من طمثها ثم رجعت إلى بيتها. وحبلت المرأة فأرسلت وأخبرت داود وقالت إنى حبلى». (صموئيل الثانى ١١/٢-٥)

وأتبع داود جريمة الزنا بجريمة أخرى وهى التآمر على زوج بتشبع، فظل يقذف به إلى قلب المعارك والحروب حتى تخلص منه.

وولدت بتشبع لداود ابناً من الزنا، وضمها إلى نسائه بعد مقتل زوجها، دون أن تشير النصوص إلى عقوبة الزنا التى سجلتها لنا شرائع سفر الخروج وسفر اللاويين، وكل ما هنالك أن : **«الأمر الذى فعله داود قبح فى عينى الرب»**. (صموئيل الثانى ١١/ ٢٦)

ومما يثير الدهشة حقاً أن الرب يعاقب على جريمة الزنا بجريمة زنا أخرى، لكنها أكثر فظاعة من سابقتها، ويصدر الحكم الإلهى القاسى على داود :

«هكذا قال الرب : هأنذا أقيم عليك الشر من بيتك وآخذ نساءك أمام عينيك وأعطيهن لقريبك فيضطجع مع نسائك فى عين هذه الشمس». (صموئيل الثانى ١٢/١١)

ويتوالى مسلسل الزنا : أمنون بن داود يزنى بأخته ثامار :

«فاضطجع أمنون وتمارض فجاء الملك ليراه. فقال أمنون للملك دع ثامار أختى فتأتى وتصنع أمامى كعكتين فآكل من يدها. فأرسل داود إلى ثامار إلى البيت قائلاً اذهبى إلى بيت أمنون أخيك واعملى له طعاماً. فذهبت ثامار إلى بيت أمنون أخيها وهو مضطجع. وأخذت العجين وعجنت وعملت كعكا أمامه وخبزت الكعك وأخذت المقلاة وسكبت أمامه فأبى أن يأكل. وقال أمنون أخرجوا كل إنسان عنى. فخرج كل إنسان عنه. ثم قال لثامار ايتى بالطعام إلى المخدع فآكل من يدك. فأخذت ثامار الكعك الذى عملته وأتت به أمنون أخاها إلى المخدع. وقدمت له ليأكل فأمسكها وقال لها تعالى اضطجعى معى يا أختى. فقال له لا يا أخى لا تذلنى لأنه لا يفعل هكذا فى إسرائيل. لا تعمل هذه القباحة. أما أنا فأين أذهب بعارى وأما أنت فتكون كواحد من

السفهاء فى إسرائيل. والآن كلم الملك لأنه لا يمنعنى منك. فلم يشأ أن يسمع لصوتها بل تمكن منها وقهرها واضطجع معها».
(صموئيل الثانى ١٣/٦ - ١٤)

ولم يطبق الملك داود، ولا كل إسرائيل العقوبة الشرعية، وإنما ثأر أبشالوم بن داود لأخته وقتل أمنون (صموئيل الثانى ١٣/٢٨ - ٣٣).

فقتل أمنون الزانى هنا لم يكن تطبيقاً للشرع الغائب، وإنما كان انتقاماً وثأراً، وعلى حد تعبير النص **«لأن ذلك قد وضع عند ابشالوم منذ يوم أذل ثامار أخته»** (صموئيل الثانى ١٣/٣٣).

أما أبشالوم الذى أخذته الحمية لأخته وقتل أخاه أمنون عقاباً له على جريمة الزنا بثامار أخته، فقد فعل ما هو أشنع وأبشع فى مسلسل الزنا الإسرائيلى بالمحارم :

«وقال أبشالوم لأخيتوفل أعطوا مشورة ماذا نفعل. فقال أخيتوفل لأبشالوم ادخل إلى سرارى أبيك اللواتى تركهن لحفظ البيت فيسمع كل إسرائيل أنك قد صرت مكروها من أبيك (داود) فتتشدد أيدى جميع الذين معك. فنصبوا لأبشالوم الخيمة على السطح ودخل أبشالوم إلى سرارى أبيه أمام جميع إسرائيل. وكانت مشورة أخيتوفل التى كان يشير بها فى تلك الأيام كمن يسأل بكلام الله». (صموئيل الثانى ١٦/٢٠ - ٢٣)

وتتحقق العقوبة الإلهية الموعودة فى صموئيل الثانى ١٢/١١، ويزنى أبشالوم بسرارى أبيه الملك داود.

وشرائع الزنا الواردة فى اللاويين مازالت غائبة عن واقع إسرائيل، فلا عقوبة على أبشالوم الذى يرتكب جريمته أمام جميع إسرائيل، ولنا أن نتخيل الواقعة، وننظر إلى ما تفعله الحيوانات فى الطرقات دون حياء، لكنها لا تعقل، ولا تطلب المشورة، كما نجد فى أبشالوم وقصته.

وقد كان الزنا فى كثير من مراحل تاريخ بنى إسرائيل معلماً بارزاً في أفعالهم، وسمة غالبة عليهم، وقد وجدنا النبى إرمياء يعدد لقومه فظائعهم فيقول :

«أتسرقون وتقتلون وتزنون» (إرمياء ٩/٧)

والعهد القديم حافل بالشواهد على هذا الملمح البارز من ملامح الشخصية الإسرائيلية.

٥- إغــراء النســاء

فى إطار حملات النبى إشعياء لإصلاح الإعوجاج الدينى والاجتماعى فى بنى إسرائيل، ما كان لهذا النبى أن يدع الانحلال الأخلاقى للمرأة الإسرائيلية فى عصره، ولذلك نقل إشعياء لقومه تهديد الرب لهم نتيجة أحوال نسائهم المعوجة.

وفيما يلى نسوق «وصف الحالة»، كما نسوق «نتائج المرض الأخلاقى وآثاره» على نحو ما صورها لنا سفر إشعياء :

«وقال الرب من أجل أن بنات صهيون يتشامخن ويمشين ممدودات الأعناق، وغامزات بعيونهن وخاطرات فى مشيهن ويخشخشن بأرجلهن. يصلع السيد هامة بنات صهيون ويعرى الرب عورتهن. ينزع السيد فى ذلك اليوم زينة الخلاخيل والضفائر والأهلة. والحلق والأساور والبراقع. والعصائب والسلاسل والمناطق وحناجر الشمامات والأحراز. والخواتم وخزائم الأنف. والثياب المزخرفة والعطف والأردية والأكياس. والمرائى والقمصان والعمائم والأزر. فيكون عوض الطيب عفونة، وعوض المنطقة حبل وعوض الجدائل قرعة، وعوض الديباج زنار مسح وعوض الجمال كى». (١٦/٣ - ٢٤)

هذا حال نساء أورشليم. يقول و. فيتش فى تفسير الفقرات السابقة : «فحتى النساء فى أورشليم تورطن فى الحالة العامة هذه الرهيبة»[1].

فمشية نساء أورشليم ذات ريبة.

والأجساد والأعناق تمارس دورها فى الإغراء.

والعيون - أيضاً - تلعب دورها بالغمز.

والأرجل تشارك فى المهمة القذرة.

والزينة قد شملت الجسد كله، ظاهره وباطنه.

لهذا كله، استحقت نساء أورشليم - لا لهذا التنعم والإسراف فحسب، بل لمظاهر الانحلال الأخلاقى الواضح فى الفقرات أيضاً - عقاب السيد الرب الذى تمثل فى سلب كل هذه المظاهر الترفيهية، وفى استبدال القبح بالجمال، ثم العنوسة :

«رجالك يسقطون بالسيف وأبطالك فى الحرب. فتئن وتنوح أبوابها، وهى فارغة تجلس على الأرض. فتمسك سبع نساء برجل واحد فى ذلك اليوم قائلات : نأكل خبزنا ونلبس ثيابنا. ليدع فقط اسمك علينا. انزع عارنا». (اشعياء ٣/٢٥ - ٢٦؛ ٤/١)

هكذا كان حال نساء أورشليم، وهكذا يكون عقاب الرب لهن.

ولم تكن حال نساء السامرة فى الشمال بأفضل من أخواتهن فى أورشليم بالجنوب، لذلك شن النبى عاموس كذلك حملة إصلاحية لنساء السامرة، صورها لنا الإصحاح الرابع من سفره.

١- انظر : «تفسير إشعياء» فى تفسير الكتاب المقدس، جـ٤/٣٤ - ٣٥.

٦- الخـــداع

مع أن الخداع والمكر والتحايل قد ورد فى مواضع شتى من العهد القديم، ومع شخصيات إسرائيلية عديدة، إلا أن هناك شخصيات بعينها قد «تخصصت» فى الخداع، وأصبحت من «أرباب السوابق» التى ميز المكر والتحايل سلوكها.

ومن أبرز الشخصيات التى احترفت هذه الصفات - على نحو ما تقص علينا الأسفار - كان يعقوب، أو إسرائيل، الذى انتسب إليه سائر شعبه فيما بعد.

وأول مواقف التحايل ما فعله يعقوب مع أخيه عيسو - بكر أبيه - عندما عاد من حقله متعباً، وطلب من أخيه - يعقوب - طعاماً، إذ كان متعباً للغاية. لكن يعقوب يأبى إلا أن يمكر بأخيه ويسلبه حقاً معنوياً - لا ندرى كيف يتم سلبه والاستيلاء عليه - ألا وهو حق البكورية. فيساوم أخاه عيسو - والمساومة أصبحت خلقاً توارثته الأجيال فيما بعد - على بكوريته مقابل قطعة خبز وطبخة عدس. ونظراً لحاجة عيسو الماسة إلى الطعام فقد استجاب لابتزاز أخيه، وتنازل له عن بكوريته، بل لقد احتقر عيسو البكورية. (تكوين ٢٥/٢٩ - ٣٤)

وكان سلب يعقوب لبكورية عيسو أخيه بداية مخطط وسلسلة من عمليات النصب والاحتيال القائمة على المكر والخداع والتحايل.

وهذه هى العملية الثانية :

«وحدث لما شاخ إسحق وكلت عيناه عن النظر أنه دعا ابنه الأكبر وقال له يا ابنى. فقال له هأنذا. فقال إننى قد شخت ولست أعرف يوم وفاتى. فالآن خذ عدتك جعبتك وقوسك واخرج إلى البرية وتصيد لى صيداً. واصنع لى أطعمة كما أحب وأتنى بها لآكل حتى تباركك نفسى قبل أن أموت.

وكانت رفقة سامعة إذ تكلم إسحق مع عيسو ابنه. فذهب عيسو إلى البرية كى يصطاد صيداً ليأتى به. وأما رفقة فكلمت يعقوب

ابنها قائلة إنى قد سمعت أباك يكلم عيسو أخاك قائلاً. ائتنى بصيد واصنع لى أطعمة لآكل وأباركك أمام الرب قبل وفاتى. فالآن يا ابنى اسمع لقولى فى ما أنا آمرك به. اذهب إلى الغنم وخذ لى من هناك جديين جيدين من المعزى. فأصنعهما أطعمة لأبيك كما يحب. فتحضرها إلى أبيك ليأكل حتى يباركك قبل وفاته. فقال يعقوب لرفقة أمه هو ذا عيسو أخى رجل أشعر وأنا رجل أملس. ربما يحسنى أبى فأكون فى عينيه كمتهاون وأجلب على نفسى لعنة لا بركة. فقالت له أمه لعنتك على يا ابنى. اسمع لقولى فقط واذهب خذ لى. فذهب وأخذ وأحضر لأمه. فصنعت أمه أطعمة كما كان أبوه يحب. وأخذت رفقة ثياب عيسو ابنها الأكبر الفاخرة التى كانت عندها فى البيت وألبست يعقوب ابنها الأصغر. وألبست يديه وملاسة عنقه جلود جديى المعزى. وأعطت الأطعمة والخبز التى صنعت فى يد يعقوب ابنها». (تكوين ٢٧/١ - ٢٧)

ودخل يعقوب على أبيه الشيخ المسن، وأوهمه بأنه عيسو، وتشكك الأب فى كلام ابنه، إذ الصوت صوت يعقوب، لكن ملمسة ملمس عيسو. ووقع الأب ضحية خداع يعقوب، وباركه بعد أن أكل وشرب الخمر قائلاً :

«فليعطك الله من ندى السماء ومن دسم الأرض. وكثرة حنطة وخمر. ليستعبد لك شعوب وتسجد لك قبائل. كن سيداً لاخوتك. ويسجد لك بنو أمك. ليكن لاعنوك ملعونين. ومباركون مباركين». (تكوين ٢٩/٢٧)

ويظفر يعقوب بالبركة - ولاندرى كيف يبارك الرب مخادعاً محتالاً - وخرج من عند أبيه، ثم يأتى عيسو طالباً بركة أبيه، ليكتشف الحقيقة المرة :

«قد جاء أخوك بمكر وأخذ بركتك» (تكوين ٣٥/٢٧)

ولم يكن أمام يعقوب إلا الهروب من وجه أخيه ولو لحين، بعد اكتشاف خداعه، ففر - بناءً على نصيحة أمه - إلى خاله لابان فى حاران، لكنه فى طريقه إلى حاران، يظهر له الرب فى الحلم ليبارك له خداعه، ويمنحه ما لا يمكن أن يمنح إلا للأتقياء الشرفاء البررة الصادقين :

«أنا الرب إله ابراهيم أبيك وإله اسحق. الأرض التى أنت مضطجع عليها أعطيها لك ولنسلك. ويكون نسلك كتراب الأرض، وتمتد غرباً وشرقاً وشمالاً وجنوباً. ويتبارك فيك وفى نسلك جميع قبائل الأرض، وها أنا معك وأحفظك حيثما تذهب، وأردك إلى هذه الأرض، لأنى لا أتركك حتى أفعل ما كلمتك به».
(تكوين ٢٨ /١٣ - ١٥)

مكافأة الخداع والمكر والتحايل : الأرض والقوة والبركة، ومعية الرب وحفظة. فهل يعنى ذلك أن يكون سلوك يعقوب قدوة لنسله ولمن يأتى بعده ؟

وذهب يعقوب إلى لابان خاله، واتفق معه على خدمته سبع سنين على أن يزوجه ابنته الصغرى راحيل، ووافق لابان قائلاً :

«أن أعطيك إياها أحسن من أن أعطيها لرجل آخر»
(تكون٢٩/١٩)

ولكن يبدو أن يعقوب قد وقع مع مخادع ومحتال فاقة مكراً وحيلة، إذ بعد انقضاء السنوات المتفق عليها حدث ما يلى :

«ثم قال يعقوب للابان أعطنى امرأتى لأنى أيامى قد كملت. فأدخل عليها. فجمع لابان جميع أهل المكان وصنع وليمة، وكان فى المساء أنه أخذ ليئة ابنته وأتى بها إليه. فدخل عليها. وأعطى لابان زلفة جاريته لليئة ابنته جارية. وفى الصباح إذا هى ليئة. فقال للابان ما

هذا الذى صنعت بى أليس براحيل خدمت عندك. فلماذا خدعتنى. فقال لابان لا يفعل هكذا فى مكاننا أن تعطى الصغيرة قبل البكر. أكمل أسبوع هذه فنعطيك تلك أيضا بالخدمة التى تخدمنى أيضاً سبع سنين أخر». (تكوين ٢٩/٢١ - ٢٧)

خدعة «لابانية»، استطاع من خلالها أن يتخلص من ابنته الكبرى التى لم تكن فى جمال الصغرى، متذرعاً بحجة الأعراف والتقاليد التى تقضى بزواج الكبرى قبل الصغرى. ولكن إذا كان الأمر كذلك، فلم لمْ يخبر لابان يعقوب من البداية دون أن يخدعه سبع سنوات كاملة ؟!

يبدو أنه كان على يعقوب أن يتجرع من نفس الكأس التى تجرع منها عيسو أخوه، كأس الخداع والتحايل.

ولكن، ما كان ليعقوب أن يدع الأمور تمر على طبيعتها. إذ يبدو أن «الطبع غلاب»، أو أنه أراد أن يرد على خداع لابان بخداع آخر تخصص فيه يعقوب واحترفه، وأعنى : التحايل حتى يسلب الآخرين حقوقهم.

وهذه المرة، وضع يعقوب خطته التى استغرقت زمناً حتى آتت ثمارها كما ينبغى، وها هى تفاصيل عملية النصب والاحتيال كما يرويها لنا سفر التكوين :

«وحدث لما ولدت راحيل يوسف أن يعقوب قال للابان اصرفنى لأذهب مكانى وإلى أرضى. أعطنى نسائى وأولادى الذين خدمتك بهم فأذهب. لأنك أنت تعلم خدمتى التى خدمتك. فقال له لابان ليتنى أجد نعمة فى عينيك. قد تفاءلت فباركنى الرب بسببك. وقال عين لى أجرتك فأعطيك. فقال له أنت تعلم ماذا خدمتك وماذا صارت مواشيك معى. لأن ما كان لك قبلى قليل فقد اتسع إلى كثير وباركك الرب فى أثرى. والآن متى أعمل أنا أيضاً لبيتى. فقال ماذا أعطيك. فقال يعقوب لا تعطينى شيئاً. إن

صنعت لى هذا الأمر أعود أرعى غنمك وأحفظها. أجتاز بين غنمك كلها اليوم. واعزل أنت منها كل شاة رقطاء وبلقاء وكل شاة سوداء بين الخرفان وبلقاء بين المعزى. فيكون مثل ذلك أجرتى ويشهد فى برى يوم غد إذا جئت من أجل أجرتى قدامك. كل ما ليس أرقط أو أبلق بين المعزى وأسود بين الخرفان فهو مسروق عندى. فقال لابان هو ذا ليكن بحسب كلامك. فعزل في ذلك اليوم التيوس المخططة والبلقاء وكل العناز الرقطاء والبلقاء. كل ما فيه بياض وكل أسود بين الخرفان. ودفعها إلى أيدى بنيه. وجعل مسيرة ثلاثة أيام بينه وبين يعقوب. وكان يعقوب يرعى غنم لابان الباقية فأخذ يعقوب لنفسه قضباناً خضراً من لبنى ولوز ودلب وقشر فيها خطوطاً بيضاً كاشطاً عن البياض الذى على القضبان. وأوقف القضبان التى قشرها فى الأجران فى مساقى الماء حيث كانت الغنم تجئ لتشرب تجاه الغنم. لتتوحم عند مجيئها لتشرب. فتوحمت الغنم عند القضبان وولدت الغنم مخططات ورقطاً وبلقاً وأفرز يعقوب الخرفان وجعل وجوه الغنم إلى المخطط وكل أسود بين غنم لابان وجعل له قطعاناً وحده ولم يجعلها مع غنم لابان. وحدث كلما توحمت الغنم القوية أن يعقوب وضع القضبان أمام عيون الغنم فى الأجران. لتتوحم بين القضبان. وحين استضعفت الغنم لم يضعها فصارت الضعيفة للابان والقوية ليعقوب. فاتسع الرجل كثيراً جداً. وكان له غنم كثير وجوار وعبيد وجمال وحمير». (تكوين ٣٠/٢٥ - ٤١)

بعد هذه العملية، كانت توجيهات الرب ليعقوب :

«وقال الرب ليعقوب : ارجع إلى أرض آبائك وإلى عشيرتك، فأكون معك». (تكوين ٣١/٣)

تستمر إذن معية الله مع يعقوب تأكيداً لدعمه وتأييده له بعد النجاح فى أكبر عملية نصب واحتيال قام بها يعقوب مع خاله لابان، بل إن يعقوب يبرر لزوجتيه أسباب عمليته مع أبيهما قائلاً :

«أنتما تعلمان أنى بكل قوتى خدمت أباكما. وأما أبوكما فغدر بى وغير أجرتى عشر مرات. لكن الله لم يسمح له أن يصنع بى شراً.. فقد سلب الله مواشى أبيكما وأعطانى». (تكوين ٣١/٦ - ٩)

وباركت الزوجتان «العملية»، بعد أن اقنعهما يعقوب - وما أسهل ذلك عليه - بأن الرب هو الفاعل،، وقالتا له بشماتة فى أبيهما المحتال أيضاً :

«فأجابت راحيل وليئة وقالتا له : ألنا أيضاً نصيب وميراث فى بيت أبينا. ألم نحسب منه أجنبيتين. لأنه باعنا وقد أكل أيضاً ثمننا، إن الغنى الذى سلبه الله من أبينا هو لنا ولأولادنا. فالآن : كل ما قال لك الله افعل». (تكوين ٣١/١٤ - ١٦)

ويهرب يعقوب من وجه لابان خاله، ويطارده الأخير حتى يلحق به فى جبل جلعاد، لكن الرب يظهر للابان فى الحلم ويحذره من المساس بيعقوب ولو بالقول، ويلين لابان ويعاتب ابن اخته :

«وقال لابان ليعقوب : ماذا فعلت وقد خدعت قلبى وسقت بناتى كسبايا السيف. لماذا هربت خفية وخدعتنى ولم تخبرنى ...».
(تكوين ٣١/٦- ٧)

وهكذا يستسلم لابان لاحتيال يعقوب وخداعه ومكره، أمام تدخل الرب وتحذيره له، حتى ينجو يعقوب بما سلب، ولتكون لنا فى هذه الواقعة عبرة وعظة، وليكون لشعب إسرائيل - فيما بعد - فى أبيهم قدوة : الخداع والمكر والسلب، لنيل بركة الرب ومعيته.

وقصة أبناء يعقوب - وورثته فى المكر والخداع - مع حمور الحوى وابنه شكيم مسجلة فى سفر التكوين أيضاً، إذ تم الاتفاق على زواج شكيم من دينة ابنة يعقوب : **«فأجاب بنو يعقوب شكيم وحمور أباه بمكر»** (تكوين ١٣/٣٤)، ووافقا بشروط، ثم أخلوا بشروط هذا الاتفاق، وتم التحايل والخداع، حتى حققوا ما أرادوا، وتخلصوا من كل رجال المدينة وذكورها.

ثم يأتى كاشف عورات إسرائيل، النبى إرمياء، ليبين لنا كيف اتسمت الشخصية الإسرائيلية التى عاصرها بالمكر والخداع، فهو يصف قومه قائلاً :

«مثل قفص ملآن طيوراً، هكذا بيوتهم ملآنة مكراً». (إرميا ٢٧/٥)

هذا وصف إرمياء النبى لبنى إسرائيل فى أورشليم. ولكلمة «ملآنة» دلالتها على «تشبع» الإسرائيليين بالمكر، إذ كان يكفيه أن يقول : وبيوتهم فيها مكر، لكنه أراد أن ينقل لنا صورة واقعية لما يراه ويعيشه.

ويتساءل إرمياء فى موضع آخر عن ردة شعبه، ثم يجيب على نفسه. إنه «مونولوج» يعكس ما يعانيه النبى من هذا الشعب الماكر :

«فلماذا ارتد هذا الشعب فى أورشليم ارتداداً دائماً. تمسكوا بالمكر، أبوا أن يرجعوا». (إميا ٥/٨)

ويدرك إرمياء النبى، كما يدرك ربه تلك الصفة التى لازمت بنى إسرائيل، فيقول لنا إرمياء فى حق شعب أورشليم :

«مسكنك فى وسط المكز. بالمكر أبوا أن يعرفونى. يقول الرب».(٦/٩)

والسكن يعنى الاستقرار، والوسط يعنى الإحاطة، فكأن سكان أورشليم الإسرائيليين مستقرون وقانعون وهم محاطون بالمكر من كل جانب، وكانت نتيجة مكرهم، أن ضلوا الطريق، ولم يعرفوا الرب.

والملاحظ على الشواهد التى سقناها فى الحديث عن خداع وتحايل ومكر إسرائيل أنها قد بدأت برواية وقائع وأحداث تطبيقية، ثم انتهت بالتجريد، والحديث عن المكر وقد أصبح «قيمة» تتمسك بها الشخصية الإسرائيلية، وسمة تلاصقها، ومعلماً يميزها.

ومن العجيب أن يستنكر الرب على شعبه مكرهم وخداعهم، وقد سبق أن باركه لآبائهم، وارتضاه لهم. إنهم محافظون على سنة «الآباء»، إذ فى الحياد عن طريق الأولين الصالحين هلاك وخسران مبين.

٧- الجبـــــن

تتعدد المواقف التى سجلتها لنا أسفار العهد القديم، وتصف حالة الجبن والخوف والهلع التى تصيب بنى إسرائيل ساعة لقاء العدو بخاصة.

وأول المواقف تبدأ عند مواجهات يشوع مع أعدائه أهل البلاد التى غزاها الإسرائيليون. فبعد الجولة الأولى التى انتصر فيها يشوع - بمساعدة الرب - على أريحا وأهلها،، كانت مواجهة أهل عاى.

تتم عملية التجسس على عاى، ويتم وفقها تقدير القوات الغازية لها بثلاثة آلاف :

> **«فصعد من الشعب إلى هناك نحو ثلاثة آلاف رجل. وهربوا أمام أهل عاى. فضرب منهم أهل عاى نحو ستة وثلاثين رجلاً ولحقوهم من أمام الباب إلى شباريم وضربوهم فى المنحدر فذاب قلب الشعب وصار مثل الماء».** (يشوع ٧/٤-٥)

هذه بدايات المواجهات مع أهل البلدان التى اشتبك معها الإسرائيليون، وهى بدايات تشهد بالخوف والهلع والجبن الذى سيطر على الغازين، فهم لم يهربوا فقط، بل من شدة خوفهم وهلعهم، «ذاب قلب الشعب وصار مثل الماء» وهى صورة رائعة، تجسد مدى

الخوف الذى ألم ببنى إسرائيل، فالماء لا يصمد أمام شئ، وهذا حكم السوائل المائعة، ليس فيها تجمد يصمد أمام ما يعتريه. إن لفظ الذوبان وحده كفيل برسم حالة الخوف، وتشبيه «قلب الشعب» بالماء، ليؤكد تلك الصورة التى أصبح عليها الإسرائيليون فى مواجهة عدوهم.

ومع أن يشوع كان مثالاً للقائد الذى يعيث فى الأرض فساداً، فيقتل ويحرق ويذبح كل ما ومن يقابله، فإنه لم يعدم الشعور بالخوف والرعب، لولا تدخل الرب فى الوقت المناسب. ويبدو أن «عاى» كانت مصدر رعب للإسرائيليين وقائدهم، مما دفع الرب إلى التدخل بنفسه :

«فقال الرب ليشوع : لا تخف، ولا ترتعب، خذ معك جميع رجال الحرب وقم اصعد إلى عاى». (يشوع ١/٨)

وكان التدخل الربانى لطمأنة يشوع وقومه ونزع الخوف من قلوبهم أمراً دائم الحدوث عند مواجهة الأعداء.

فعند مواجهة الإسرائيليين لملوك الأموريين الخمسة **«قال الرب ليشوع لا تخفهم لأنى بيدك قد أسلمتهم».** (يشوع ٨/١٠)

وعند مواجهة الكنعانيين وحلفائهم أيضاً **«قال الرب ليشوع لا تخفهم»** (يشوع ٦/١١)

وفى عصر القضاة، وعندما كان جدعون يعد العدة لمقاتلة المديانيين، أمره الرب أن يقلص عدد قواته البالغ عددها اثنان وثلاثون ألفاً :

«والآن ناد فى آذان الشعب قائلاً : من كان خائفاً ومرتعداً فليرجع وينصرف من جبل جلعاد. فرجع من الشعب اثنان وعشرون ألفاً وبقى عشرة آلاف». (قضاة ٣/٧)

وهكذا فإن أكثر من ثلثى الشعب جبناء وخائفون ومرتعدون، وهذا يعكس حجم الخوف المتمكن من قلوب الإسرائيليين آنذاك.

والصراع الإسرائيلى - الفلسطينى فى أسفار العهد القديم، يجسد لنا حالات الخوف والرعب التى سادت الجانب الإسرائيلى، كلما كانت هناك جولة مع العدو الفلسطينى :

«وسمع الفلسطينيون أن بنى إسرائيل قد اجتمعوا فى المصفاة فصعد أقطاب الفلسطينين إلى إسرائيل. فلما سمع بنو إسرائيل خافوا من الفلسطينيين، وقال بنو إسرائيل لصموئيل لا تكف عن الصراخ من أجلنا إلى الرب إلهنا فيخلصنا من يد الفلسطينيين».
(صموئيل أول ٧/٧-٨)

فلم يعد أمام الإسرائيليون من حول ولا قوة إلا الصراخ إلى الرب ليخلصهم من الفلسطينيين بعد أن عجزوا هم بقوتهم عن الصمود أمام عدوهم.

والجبان دائماً يلجأ إلى الاختباء من عدوه :

«ولما رأى رجال إسرائيل أنهم فى ضنك. لأن الشعب تضايق. اختبأ الشعب فى المغاير والغياض والصخور والصروح والآبار. وبعض العبرانيين عبروا الأردن إلى أرض جلعاد. وكان شاول بعد فى الجلجال وكل الشعب ارتعد وراءه». (صموئيل أول ١٣/٦-٧)

ويبدو أن هذه المواقف الانهزامية، قد جعلت الفلسطينيين يسخرون من الإسرائيليين، وقد بدت هذه السخرية من قول الفلسطينيين :

«هو ذا العبرانيون خارجون من الثقوب التى اختبأوا فيها».
(صموئيل أول ١٤/ ١١)

فعندما يتمكن الخوف من شخص ما، ينكمش هذا الخائف ويتضاءل فى حجمه ليتوارى عن العيون الراصدة، له وبلغ حد هذا التضاؤل الإسرائيلى أن اختبأ جبناؤهم فى

«الشقوب»، ومعلوم أن «الشقوب» تعبير يطلق على الفتحات المتناهية فى الصغر والضيق.

ولقد بلغ الرعب الإسرائيلى من الفلسطينيين مبلغه، حين أهان الفلسطينى إسرائيل وتحداهم :

«وقال الفلسطينى أنا عيّرت صفوف إسرائيل هذا اليوم اعطونى رجلاً فنتحارب معا. ولما سمع شاول وجميع إسرائيل كلام الفلسطينى هذا ارتاعوا وخافوا جداً». (صموئيل أول ١٧/١٠-١١)

ليس هذا فحسب، فبروز فلسطينى مقاتل أمام «جميع رجال إسرائيل» أمر مثير للهلع والخوف فى صفوفهم :

«وفيما هو (داود) يكلمهم إذ برجل مبارز اسمه جليات الفلسطينى من جت صاعد من صفوف الفلسطينيين وتكلم بمثل هذا الكلام فسمع داود. وجميع رجال إسرائيل لما رأوا الرجل هربوا منه وخافوا جداً». (صموئيل أول ١٧ / ٢٣ - ٢٤)

إن مجرد وجود الفلسطينيين على الساحة يثير الخوف والقلق فى صفوف إسرائيل :

«فقال رجال داود له : ها نحن ههنا فى يهوذا خائفون، فكم بالحرى إذا ذهبنا إلى قعيلة ضد صفوف الفلسطينيين». (صموئيل أول ٣/٢٣)

والقائد الإسرائيلى شاول، بقوته وجبروته، يذوب خوفاً وهلعاً من الفلسطينيين :

«ولما رأى شاول جيش الفلسطينيين خاف واضطرب قلبه جداً». (صموئيل أول ٥/٢٨)

وإذا حدثت المواجهة، كان سوء العاقبة :

«وحارب الفلسطينيون إسرائيل، فهرب رجال إسرائيل من أمام الفلسطينيين وسقطوا قتلى فى جبل جلبوع». (صموئيل أول ٣١/١)

إن مجرد تجمع الفلسطينيين فى مكان ما يثير الرعب والفزع فى قلوب الإسرائيليين:

«هو كان مع داود فى فسَّ دميم، وقد اجتمع هناك الفلسطينيون للحرب. وكانت قطعة الحقل مملوءة شعيراً. فهرب الشعب من أمام الفلسطينيين». (أخبار الأيام الأول ١١/١٣)

والقضية على نحو ما نرى ليست مسألة استعدادات وقوة عسكرية بقدر ما هى إحساس قلبى، يتمثل هنا فى غريزة الجبن والخوف المتأصلة فى الشخصية الإسرائيلية من مواجهة الفلسطينيين فى قتال لا يدار بالأجهزة والأزرار عن بعد، بل فى التحام فعلى، يلتقى فيه المتقاتلان، والصمود وقتها للشجاع وإن ضعف سلاحه، والهزيمة للجبان الخائف وإن تدجج بالسلاح.

ولم يفلح داود - رغم نشاطه العسكرى الواسع - فى غرس الشجاعة فى قلوب الإسرائيليين ونزع رواسب الجبن منها، إذ هرب الإسرائيليون - كالعادة - من ساحة قتال العمالقة :

«إن الشعب قد هرب من القتال، وسقط أيضاً كثيرون من الشعب وماتوا، ومات شاول ويوناثان ابنه أيضاً». (صموئيل ثان ١/٤)

إن عقدة الخوف والجبن تتجلى بوضوح كلما ذكر القتال بين بنى إسرائيل، مهما كان لديهم من قوة وامكانات. ويتضح ذلك عندما كتب «ياهو» رسائل إلى شيوخ يزرعيل فى السامرة قائلاً لهم :

«فالآن عند وصول هذه الرسالة إليكم إذ عندكم بنو سيدكم وعندكم مركبات وخيل ومدينة محصنة وسلاح، انظروا الأفضل والأصلح من

بنى سيدكم واجعلوه على كرسى أبيه، وحاربوا عن بيت سيدكم. فخافوا جداً جداً، وقالوا هوذا ملكان لم يقفا أمامه فكيف نقف نحن». (ملوك ثان ١٠/٣ - ٤)

فالقوة متوافرة : مركبات وخيل ومدينة محصنة وسلاح.

والدافع للقتال موجود : الدفاع عن بيت سيدهم.

لكن الجبن المتجذر فى القلوب أقوى من السلاح والعتاد، وأقوى من كل دافع يمكن أن يحرك فى النفوس نخوة لحماية شرف أو أرض أو عرض.

٨- الحماقة والغباء

اشتملت فقرات عديدة من أسفار العهد القديم على دعوة للتبصر والفهم والسعى وراء الحكمة، لكن سلوك الشخصية الإسرائيلية على مدى التاريخ يثبت عكس ذلك تماماً.

فبينما يحفل سفر الأمثال - كنموذج للحث على الحكمة - بالعديد من الفقرات التى يستضاء بها فى النهج الإنسانى مثل :

«اقتن الحكمة. اقتن الفهم ... الحكمة هى الرأس، فاقتن الحكمة، وبكل مقتناك اقتن الفهم. ارفعها فتعليك. تمجدك إذا اعتنقتها ...» (٤/٥-٨)

«قل للحكمة أنت أختى، وادعُ الفهم ذا قرابة». (٤/٧)

وبينما يسوق لنا السفر ذاته نماذج وضروباً من السلوك الحكيم المبنى على الفهم والتبصر والتروى (٦/٦- ١١؛ ٨/١؛ ٩/٧-٨؛ ١٠/١٣-١٤؛ ١٢/١ وغيرها).

بينما نجد ذلك كله مسطوراً فى كتب بنى إسرائيل، تفاجئنا سلوكايتهم «المضادة» فى كثير من مواضع هذه الكتب.

فقد أغلقوا عقولهم عن الفهم، وأعينهم عن البصر والتروى، وقلوبهم عن الإدراك، وقد أدرك موسى حقيقة شعبه فوبخه على تلك الصفات المقوتة :

«ودعا موسى جميع إسرائيل وقال لهم : أنتم شاهدتم ما فعل الرب أمام أعينكم فى أرض مصر بفرعون وبجميع عبيده وبكل أرضه. التجارب العظيمة التى أبصرتها عيناك، وتلك الآيات والعجائب العظيمة. ولكن لم يعطكم الرب قلباً لتفهموا وأعيناً لتبصروا وآذاناً لتسمعوا إلى هذا اليوم». (تثنية ٢٩/٢ - ٤)

هكذا يذكر موسى قومه بالآيات التى يجب على كل ذى عقل رشيد أن يتبصر فيها ليعتبر، لكن ذلك لا يجدى مع أناسٍ خُتم على قلوبهم وعلى أسماعهم، وعلى أبصارهم غشاوة.

ويواصل موسى ربط الماضى بالحاضر فى محاولاته ومساعيه لإصلاح فساد قومه، فيذكرهم بأفعال الله معهم، وبعدله وأمانته، ويستنكر ردتهم ومواقفهم من الرب فيقول:

«ألرب تكافئون بهذا يا شعباً غبياً غير حكيم. أليس هو أباك ومقتنيك. هو عملك وأنشأك. اذكر أيام القدم، وتأملوا سنى دور فدور. اسأل أباك فيخبرك، وشيوخك فيقولوا لك». (تثنية٣٢/٦-٧)

هكذا قابل الإسرائيليون الأغبياء الحمقى كرم الرب، تناسوه وتركوه، مع أنهم بإمكانهم - لو أرادوا وأعملوا عقولهم - أن يسألوا الآباء والشيوخ عما فعله الرب معهم، لكن أنّى لهم هذا وهم شعب غبى لا يفهم وغير حكيم لا يتعظ .

ويحرك غباء إسرائيل وحماقتهم الرب ذاته، فتثور ثائرته، ويغضب عليهم، ويصفهم - وهو أعلم بهم - بما يستحقون فيقول :

«إنهم أمة عديمة الرأى ولا بصيرة فيهم. لو عقلوا لفطنوا بهذه وتأملوا آخرتهم». (تثنية ٣٢/٢٨- ٢٩)

فما أبعد «أمة إسرائيل» عن الرأى السديد، والفهم الرشيد، والعقل المستفيد من العبر والعظات، وما مضى بهم وما هو آت. فلا عظة مما مر بهم من أحداث، ولا خوفاً مما ينتظرهم فى الآخرة.

وإذا كانت الشواهد السابقة دليل دامغ على غباء إسرائيل وحماقتها ككل، فإن وقائع تاريخهم فى العهد القديم تمدنا بأدلة أخرى تشير إلى نهج بعض أفرادهم، وها هو رحبعام بن سليمان، يترك مشورة العاقلين، ويسير خلف الطائشين :

> **«وذهب رحبعام إلى شكيم ... فاستشار الملك رحبعام الشيوخ ... فترك مشورة الشيوخ التى أشاروا بها واستشار الأحداث الذين نشأوا معه ... فأجاب الملك الشعب بقساوة، وترك مشورة الشيوخ التى أشاروا بها عليه. وكلمهم حسب مشورة الأحداث».** (ملوك أول ١٢/٢ - ١٤).

ملك يقع فى حيرة من أمره إذا حدث أمر جلل، يتوقف عليه قرار خطير يتعلق بسياسة مملكته بأسرها. يستشير «الشيوخ الذين كانوا يقفون أمام سليمان أبيه وهو حى»، وفى هذه العبارة إشارة إلى مكانة هؤلاء من ناحية، ورجاحة عقولهم من ناحية أخرى، إذ كانوا بمشورتهم لسليمان سبباً فى استقرار ملكه وقوته. ولكن يبدو أن مشورة هؤلاء لم تكن على هوى رحبعام، فذهب إلى «الأحداث» واللفظ كفيل بما ينطوى وراءه من «توقعات». فالأحداث قليلو الخبرة، حماسيون منفعلون، لذلك أشاروا على رحبعام بخلاف رأى الشيوخ تماماً، وكانت نتيجة حماقة رحبعام أن تملك يربعام على كل إسرائيل، ولم يبق فى صف رحبعام سوى سبط يهوذا وحده.

لم يكن رحبعام وحده أحمق، بل كان «الأحداث الذين نشأوا معه» وأشاروا عليه مشورة السوء حمقى كذلك.

ولا غرو فى ذلك كله إذا ما ربطنا بين هذا السلوك من جانب رحبعام وأحداثه، وصفات الشخصية الإسرائيلية بوجه عام، التى أوردناها فيما سبق من شواهد، والتى أكدها لنا النبى إشعياء مرة أخرى بقوله :

«لأن كل واحد منهم منافق وفاعل شر، وكل فم متكلم بالحماقة». (١٧/٩)

وعلى نحو ما رأينا، فقد اجتمع رأى الرب وحكمه، مع رأى موسى وإشعياء فى وصف شعب إسرائيل بالغباء والحماقة وعدم الفهم والبصيرة، كما أكدت أفعالهم تمكن هذه الصفة منهم، حتى أصبحت معلماً من معالم شخصيتهم.

٩- العنـــاد

العناد صفة مبعثها قصور فى الفهم ناتج عن حماقة أو غباء أو انغلاق فكرى، لذلك نجده غالباً يميز سلوك الطفل أو الفرد الساذج. فالطفل نتيجة محدودية عقله وخبرته وثقافته يلجأ إلى العناد ظاناً منه أنه على حق فيما يفعل، وأنه بإمكانه إجبار الآخرين على ما يريد، وقد تكون عقوبته شديدة على أيدى أولياء أمره. أما المرء الساذج، فلا يعتقد أن هناك عالماً خارج تصوره الذهنى المحدود، ومن ثم فلا يأبه بما يحيط به، وتأخذه العزة بالإثم فى تعاملاته مع الآخرين، حتى يأتى وقت يلفظه الناس فيه، ويصبح منبوذاً، ومثار سخرية الآخرين.

وأبرز تعبير توراتى جاء لوصف ما عليه الإسرائيليون من عناد، هو تعبير **«شعب صلب الرقبة»** (انظر : خروج ٣٢ / ٩ ؛ ٣٣ / ٥ ؛ تثنية ٩ / ٦ ؛ ١٣ ؛ ٢٧ وغيرها)

وصلابة الرقبة هى حركة حيوانية يقوم بها الثور أو الحصان عندما يقاوم اللجام،(١) ولاشك أن الحيوان أقل استخداماً لعقله من الإنسان، كما أنه لا يقدر العواقب لما يفعله، ومن ثم لا يؤاخذ، ولا يكلف بالشرع.

وقد اكتشف الرب حالة شعبه منذ البداية، ونبه موسى إلى هذا الوصف، ليضعه فى حسابه وهو يتعامل معهم :

«وقال الرب لموسى رأيت هذا الشعب وإذا هو شعب صلب الرقبة».
(خروج ٣٢/٩)

«وأنا ارسل أمامك ملاكاً واطرد الكنعانيين والأموريين والحثيين والفرزيين والحويين واليبوسيين، إلى أرض تفيض لبناً وعسلاً. فإنى لا أصعد فى وسطك لأنك شعب صلب الرقبة لئلا أفنيك فى الطريق». (خروج ٣٣/٣)

«وكان الرب قد قال لموسى قل لبنى إسرائيل انتم شعب صلب الرقبة». (خروج ٣٣/٥)

فالرب نفسه يرفض الخروج وسط شعبه إسرائيل لعناد هذا الشعب وتمرده، وهذه حماقة قد تدفع الرب لاتخاذ موقف حاسم ضدهم «لئلا أفنيك فى الطريق».

ويفسر هرطوم تعبير «صلب الرقبة» بمعنى رافض، لا يرغب فى التحول عن عبادة الأوثان الشائعة فى البيئة المحيطة به، وليس من الممكن توجيهه إلى ما هو عليه من ضلال. (٢)

بينما يرى جرينبرج أن «صلب الرقبة» صفة طيبة فى حق بنى إسرائيل، إذ هم عنيدون فى الخير، شعب صلب لا يذوب بين سائر الأمم وقت تشتته، ولا يولى ثقافاتهم اهتماماً، ويقف صامداً أمام النوازل. (٣)

١- ج.س. كونيل، «تفسير سفر الخروج»، فى تفسير الكتاب المقدس، جـ١/ ٢٦٦.
٢- أ.ش. هرطوم، تفسير سفر الخروج (بالعبرية)، تل أبيب، ١٩٦٣، ص ١٢٠.
٣- إهارون يعقوب جرينبرج، تفسير سفر الخروج (بالعبرية)، تل أبيب، ١٩٧٦، ص ٢٥٩.

لكن هذا التفسير الخاطئ يخالف سياق اللغة وسياق الحال، إذ أن استخدامات هذا التعبير فى الشواهد التالية تأتى فى مواطن ذم لإسرائيل لا مدح لها.

قلنا إن العناد يولد التمرد، وهذا ما أدركه موسى حين جمع قومه وخاطبهم قائلاً :

«وجمع موسى وهارون الجمهور أمام الصخرة فقال لهم اسمعوا أيها المردة. أمن هذه الصخرة نخرج لكم ماء». (عدد ٢٠/١٠)

ويواصل الرب تنبيه موسى لأخذ الحذر من هذا الشعب، مركزاً على استخدام ذلك المصطلح الدقيق الذى وصفهم به من قبل :

«فاعلم أنه ليس لأجل برك يعطيك الرب إلهك هذه الأرض الجيدة لتمتلكها لأنك شعب صلب الرقبة». (تثنية ٩/٦)

«وكلمنى الرب قائلاً : رأيت هذا الشعب وإذا هو شعب صلب الرقبة». (تثنية ٩/١٣)

وقد كان تمرد إسرائيل وصلابة رقبته سبباً فى أن يكتب موسى التوراة ويحفظها فى تابوت العهد لتكون شاهداً على قومه :

«فعندما كمل موسى كتابة كلمات هذه التوراة فى كتاب إلى تمامها. أمر موسى اللاويين حاملى تابوت عهد الرب قائلاً : خذوا كتاب التوراة هذا وضعوه بجانب تابوت عهد الرب إلهكم ليكون هناك شاهداً عليكم. لأنى أنا عارف تمردكم ورقابكم الصلبة. هوذا وأنا بعد حى معكم اليوم قد صرتم تقاومون الرب، فكم بالحرى بعد موتى». (تثنية ٣١/١٧)

ثم نجد العهد القديم فى موضع آخر يقدم لنا مصطلحه المفضل فى وصف إسرائيل مع تعديل طفيف، إذ نرى الشعب هنا «يصلب عنقه» بعد أن كان يصلب «رقبته»

وكانت نتيجة هذا الوصف أن تمرد صدقيا ملك يهوذا على نبوخذ نصر، وفعل الشر فى عينى الرب، ورفض الرجوع إليه.

«كان صدقيا ابن احدى وعشرين سنة حين ملك وملك احدى عشرة سنة فى أورشليم. وعمل الشر فى عينى الرب إلهه ولم يتواضع أمام أرمياء النبى من فم الرب، وتمرد أيضاً على الملك نبوخذ نصر الذى حلفه بالله وصلّب عنقه وقوى قلبه عن الرجوع إلى الرب إله إسرائيل». (أخبار الأيام الثانى ٣٦/١١ - ١٣)

ومن العنق إلى القفا، وكلها تتمحور فى منطقة واحدة من الجسم، وهى من انعكاسات الحركات الجسمية الإنسانية التى تفيد الإعراض والتمرد والعصيان والعناد.

وقد أشهد الرب على شعبه الأنبياء، وأبان لهم أن عناد هذا الشعب متوارث عن الآباء، فهى صفة ملازمة لهم :

«وأشهد الرب على إسرائيل وعلى يهوذا عن يد جميع الأنبياء وكل راءٍ قائلاً ارجعوا عن طرقكم الردية واحفظوا وصاياى فرائضى حسب كل الشريعة التى أوصيت بها آباءكم والتى أرسلتها إليكم عن يد عبيدى الأنبياء. فلم يسمعوا بل صلبوا أقفيتهم كأقفية آبائهم الذين لم يؤمنوا بالرب إلههم». (ملوك ثان ١٧/١٣ -١٤)

وهكذا كان العناد الإسرائيلى مؤدياً لعدم الإيمان بالرب، وفى هذا ترجمة للمثل الذائع بيننا : «العند يورث الكفر».

ومازلنا فى منطقة إظهار العناد فى الجسم الإنسانى. فالرقبة، والعنق، والقفا، ترتبط حركاتها جميعاً، وهى تتصل به اتصالاً مباشراً. ومن الطبيعى لمن يصلب رقبته أو عنقه أو قفاه، ألا يحرك كتفه. وكلها مظاهر للعناد والتشبث بالرأى فى غير موضعه. وقد ارتبط هذا كله بمعصية الرب وعدم الالتزام بشرعه وأحكامه ووصاياه. يقول نحميا :

«وأما هم فبغوا ولم يسمعوا لوصاياك وأخطأوا ضد أحكامك التى إذا عملها إنسان يحيا بها. وأعطوا كتفاً معاندة وصلبوا رقابهم ولم يسمعوا». (نحميا ٢٩/٩)

والعناد إذا تمكن من القلب أفسده، لأنه حينئذ يسيطر على كل الملكات والجوارح. لقد انتقلت آثار العناد من الأعضاء الظاهرة للجسد إلى داخل هذا الجسد، إلى القلب، ومن ثم أصبح القلب الإسرائيلى جديراً بأن يوصف بالقلب الشرير :

«فى ذلك الزمان يسمون أورشليم كرسى الرب ويجتمع إليها كل الأمم إلى اسم الرب إلى أورشليم ولا يذهبون بعد وراء عناد قلبهم الشرير». (إرمياء ١٣/٣)

ثم يجمع إرمياء جميع مظاهر العناد من قلب شرير، والإعراض «إعطاء القفا»، وعدم الاستماع، وتصليب الرقاب، وكلها، بل كل واحدة منها كفيلة بأن تقود إلى الكفر. إن هذه الفقرات ترسم لنا حالة مستعصية من العناد الإسرائيلى «مع سبق الإصرار والترصد». [١]

«فلم يسمعوا ولم يميلوا أذنهم بل ساروا فى مشورات وعناد قلبهم الشرير وأعطوا القفا لا الوجه. فمن اليوم الذى خرج فيه آباؤكم من أرض مصر إلى هذا اليوم أرسلت إليكم كل عبيدى الأنبياء مبكراً كل يوم ومرسلاً. فلم يسمعوا ولم يميلوا أذنهم بل صلبوا رقابهم وأساءوا أكثر من آبائهم». (إرمياء ٧/٢٤- ٢٦)

ويبدو أن العناد تنعكس آثاره على جوارح الجسم كله، إذ يقدم لنا النبى حزقيال وصفاً رائعاً للحالة التى أصبح عليها بنو إسرائيل، وذلك من خلال تلك الفقرات :

١- مزيد من أقوال إرمياء حول عناد إسرائيل فى سفره : ٥/٢٣؛ ١٣/١٠؛ ١٧/٢١ - ٢٣.

«فقال لى يا ابن آدم قم على قدميك فأتكلم معك. فدخل فى روح لما تكلم معى وأقامنى على قدمى فسمعت المتكلم معى. وقال لى يا ابن آدم أنا مرسلك إلى بنى إسرائيل إلى أمةٍ متمردةٍ قد تمردت علىّ. هم وآباؤهم عصوا على إلى ذات هذا اليوم. والبنون القساة الوجوه والصلاب القلوب أنا مرسلك إليهم. فتقول لهم هكذا قال السيد الرب. وهم إن سمعوا وإن امتنعوا. لأنهم بيت متمرد. فإنهم يعلمون أن نبياً كان بينهم. أما أنت يا ابن آدم فلا تخف منهم ومن كلامهم لا تخف لأنهم قريس وسلاء لديك وأنت ساكن بين العقارب. من كلامهم لا تخف ومن وجوههم لا ترتعب. لأنهم بيت متمرد. وتتكلم معهم بكلامى إن سمعوا وإن امتنعوا لأنهم متمردون.

وأنت يا ابن آدم فاسمع ما أنا مكلمك به. لا تكن متمرداً كالبيت المتمرد. افتح فمك وكل ما أنا معطيكه. فنظرت وإذا بيد ممدوة إلىّ وإذا بدرج سفر فيها. فنشره أمامى وهو مكتوب من داخل ومن قفاه وكتب فيه مراث ونحيب وويل». (حزقيال ٢/١- ١٠)

«ولكن بيت إسرائيل لا يشاء أن يسمع لك. لأنهم لا يشاءون أن يسمعوا لى. لأن كل بيت إسرائيل صلاب الجباه وقساة القلوب». (حزقيال ٣/٧)

* فإسرائيل أمة متمردة، نتيجة عنادها مع الرب.
* وآباؤهم عصاة، والعصيان عناد.
* والبنون قساة الوجوه، صلاب القلوب.
* وكل بيت إسرائيل صلاب الجباه، قساة القلوب.

هذه أعراض داء العناد العضال، الذى يورث الكفر - كما أسلفنا - ويودى بالأمم والشعوب، وآثاره ليست قاصرة على أصحابه الممارسين له، المتصفين به، بل تتعداهم إلى المحيطين بهم، والمتعاملين معهم، فويل لمن ساكنهم، فماذا ينتظر «للساكن بين العقارب» ؟

١٠- العداوة والخصام

قد يظن ظان أن ثمة ما يربط بين مجموع «الشخصيات» الإسرائيلية بحيث يصبح «المجموع» متماسكاً على نحو ما نرى فى كثير من المواقف.

ربما يصدق هذا الحال، عندما تكون الذات الممثلة للآخر، شخصية أجنبية غير إسرائيلية. ففى كثير من المواقف التاريخية للإسرائيليين نجد اتفاقاً يجمع بين هذه الأسباط المتفرقة، والجموع المشتتة.

لكن هناك حقيقة تكشفها لنا وقائع العهد القديم، وهى أن «بأسهم بينهم شديد». فما أكثر عداواتهم وخصوماتهم.

«وكان جميع الشعب فى خصام فى جميع أسباط إسرائيل»
(صموئيل الثانى ٢٨/١٩)

وكلمة جميع هنا لم تأت اعتباطاً، وتكرارها قبل «الشعب» وقبل «الأسباط» يعكس تلك الحالة التى كان عليها القوم فى حقبة من تاريخهم.

وقد جاءت الأحداث مفصلة فيما بعد، لتروى لنا جوانب من هذه العداوة التى تمكنت من قلوب أبناء إسرائيل.

فهذه واقعة تشهد بما نقول :

«واتفق هناك رجل لئيم اسمه شبع بن بكرى، رجل بنيامينى فضرب بالبوق وقال ليس لنا قسم فى داود ولا نصيب لنا فى ابن يسى.

كل رجل إلى خيمته يا إسرائيل. فصعد كل رجال إسرائيل من وراء داود إلى وراء شبع بن بكرى. وأما رجال يهوذا فلازموا ملكهم من الأردن إلى أورشليم». (صموئيل الثانى ٢٠/١- ٢)

وهذه واقعة ثانية، تؤكد ما نشير إليه :

«وأما بنو إسرائيل الساكنون فى مدن يهوذا فملك عليهم رحبعام ثم أرسل الملك رحبعام أدورام الذى على التسخير فرجمه جميع إسرائيل بالحجارة فمات. فبادر الملك رحبعام وصعد إلى المركبة ليهرب إلى أورشليم». (ملوك أول ١٢/٧- ١٨)

وفيما يلى نسوق واقعة مفصلة لروح العداوة التى تسود بين «الأخوة الأعداء»، أبناء إسرائيل، فى صراعهم على الملك، وتكذيب كل فريق للآخر.

«وأما ياهو فخرج إلى عبيد سيده فقيل له أسلام. لماذا جاء هذا المجنون إليك. فقال لهم أنتم تعرفون الرجل وكلامه. فقالوا كذب. فأخبرنا. فقال بكذا وكذا كلمنى قائلاً هكذا قال الرب قد مسحتك ملكاً إلى إسرائيل. فبادر كل واحد وأخذ ثوبه ووضعه تحته على الدرج نفسه وضربوا بالبوق وقالوا قد ملك ياهو. وعصى ياهو بن يهوشافاط بن نمشى على يورام. وكان يورام يحافظ على راموت جلعاد هو وكل إسرائيل من حزائيل ملك أرام. ورجع يهورام الملك لكى يبرأ فى يزرعيل من الجروح التى ضربه بها الأراميون حين قاتل حزائيل ملك أرام. فقال ياهو إن كان فى أنفسكم لا يخرج منهزم من المدينة لكى ينطلق فيخبر فى يزرعيل. وركب ياهو وذهب إلى يزرعيل. لأن يورام كان مضطجعاً هناك. ونزل أخزيا ملك

يهوذا ليرى يورام. وكان الرقيب واقفاً على البرج فى يزرعيل فرأى جماعة ياهو عند إقباله فقال إنى أرى جماعة. فقال يهورام خذ فارساً وأرسله للقائهم فيقول أسلام. فذهب راكب الفرس للقائه وقال هكذا يقول الملك أسلام. فقال ياهو ما لك وللسلام. در إلى ورائى. فأخبر الرقيب قائلاً قد وصل الرسول إليهم ولم يرجع فأرسل راكب فرس ثانياً. فلما وصل إليهم قال هكذا يقول الملك أسلام. فقال ياهو مالك وللسلام. در إلى ورائي. فأخبر الرقيب قائلاً قد وصل إليهم ولم يرجع. والسوق كسوق ياهو بن نمشى لأنه يسوق بجنون. فقال يهورام أشدد. فشدت مركبته وخرج يهورام ملك إسرائيل وأخزيا ملك يهوذا كل واحد فى مركبته خرجا للقاء ياهو. فصادفاه عند حقلة نابوت اليزرعيلى. فلما رأى يهورام ياهو قال أسلام يا ياهو. فقال أى سلام ما دام زنا إيزابل أمك وسحرها الكثير. فرد يهورام يديه وهرب وقال لأخزيا خيانة يا أخزيا. فقبض ياهو بيده على القوس وضرب يهورام بين ذراعيه فخرج السهم من قلبه فسقط فى مركبته. وقال لبدقر ثالثه ارفعه وألقه فى حصة حقل نابوت اليزرعيلى. واذكر كيف إذ ركبت أنا وإياك معاً وراء أخاب أبيه جعل الرب عليه هذا الحمل. ألم أر أمسا دم نابوت ودماء بنيه يقول الرب فأجازيك فى هذه الحقلة يقول الرب. فالآن ارفعه وألقه فى الحقلة حسب قول الرب. ولما رأى ذلك أخزيا ملك يهوذا هرب فى طريق بيت البستان فطارده ياهو وقال اضربوه. فضربوه أيضاً فى المركبة فى عقبة جور التى عند يبلعام. فهرب إلى مجدو ومات هناك. فأركبه عبيده إلى أورشليم ودفنوه فى قبره مع آبائه فى مدينة داود. فى السنة الحادية عشرة ليورام بن أخاب ملك أخزيا على يهوذا». (ملوك ثان ٩/١١ - ٢٩)

والشاهد السابق يعكس لنا أعراض أزمة الثقة التى سادت بين أسباط بنى إسرائيل، كما يعكس لنا أيضاً مزاعم السلام من قبل بعضهم، وتشير بوضوح إلى «خيانة» فريق لآخر، كما تنقل لنا أخيراً نتاج هذا كله : الضرب والقتل وإزهاق الأرواح.

إن الملك ياهو نموذج متكامل يجسد روح العداوة والبغضاء التى كانت سائدة فى عصره بين بنى إسرائيل، وبخاصة بينه وبين أخاب، والتى قدم لنا سفر الملوك الثانى مشاهد من مآسيها ومخازيها :

«وبنو الملك سبعون رجلاً كانوا مع عظماء المدينة الذين ربوهم. فلما وصلت الرسالة إليهم أخذوا بنى الملك وقتلوا سبعين رجلاً ووضعوا رؤوسهم فى سلال وأرسلوها إليه إلى يزرعئيل». (ملوك ثان ١٠/٦ ٧)

«وقتل ياهو كل الذين بقوا لبيت آخاب فى يزرعئيل وكل عظمائه ومعارفه وكهنته حتى لم يبق له شارداً، ثم قام وجاء سائرا إلى السامرة وإذ كان عند بيت الرعاة فى الطريق صادف ياهو أخوة أخزيا ملك يهوذا. فقال من أنتم. فقالوا نحن أخوة أخزيا ونحن نازلون لنسلم على بنى الملك وبنى الملكة. فقال أمسكوهم أحياء. فأمسكوهم أحياء وقتلوهم عند بئر بيت عقد اثنين وأربعين رجلاً ولم يبق منهم أحداً». (ملوك ثان ١٠/١٢ - ١٤)

«ثم انطلق من هناك فصادف يهوناداب بن ركاب يلاقيه فباركه وقال له هل قلبك مستقيم نظير قلبى مع قلبك. فقال يهوناداب نعم ونعم. هات يدك. فأعطاه يده فأصعده إليه إلى المركبة. وقال هلم معى وانظر غيرتى للرب. وأركبه معه فى مركبته. وجاء إلى السامرة. وقتل جميع الذين بقوا لآخاب فى السامرة حتى أفناه حسب كلام الرب الذى كلم به إليا». (ملوك ثان ١٠/١٥-١٧)

وتبريرنا لهذه الحوادث ربما نوجزه فيما يلى : إن تلك الرغبة العدائية الكامنة فى النفس البشرية، كانت تجد لها متنفساً فى الصراعات التى كثيراً ما وقعت مع الشعوب والأمم الأخرى المجاورة، فإذا ما هدأت حدة هذه الصراعات - لظروف العصر وملابساته - كان لابد لهذه الطاقة الشريرة الكامنة فى أعماق النفس أن تخرج إلى حيز الوجود، ومن ثم، وجدت لها مجالاً للتطبيق والممارسة فيما بين الأخوة والأصدقاء.

وهذه نماذج، نقدم موجزها فقط، تعكس مدى الكراهية والعداوة السائدة بين بنى إسرائيل، وتطلعنا على بعض نتائج هذه المشاعر والأحاسيس العدوانية.

«وعاش أمصيا بن يوآش ملك يهوذا بعد وفاة يهوآش بعد يهوأحاز ملك إسرائيل خمس عشرة سنة .... وفتنوا عليه فتنة فى أورشليم فهرب إلى لخيش فأرسلوا وراءه إلى لخيش وقتلوه هناك». (ملوك ثان ١٤/١٧ - ١٩)

«فى السنة الثامنة والثلاثين لعزريا ملك يهوذا ملك زكريا بن يربعام على إسرائيل فى السامرة ستة أشهر ... ففتن عليه شلوم بن يابيش وضربه أمام الشعب فقتله وملك عوضا عنه». (ملوك ثان ١٥/٨-١١)

«وصعد منحيم بن جادى من ترصة وجاء إلى السامرة وضرب شالوم بن يابيش فى السامرة فقتله وملك عوضا عنه.» (ملوك ثان ١٥/١٤)

«وفتن هوشع بن أيلة على فقح بن رمليا وضربه فقتله وملك عوضا عنه فى السنة العشرين ليوثام بن عزريا». (ملوك ثان ١٥/٣١)

«كان آمون ابن اثنتين وعشرين سنة حين ملك وملك سنتين فى أورشليم واسم أمه مشلمة بنت حاروص من يطبة. ... وفتن عبيد آمون عليه فقتلوا الملك فى بيته. فضرب كل شعب الأرض جميع الفاتنين على الملك آمون وملّك شعبُ الأرض يوشيا ابنه عوضاً عنه». (ملوك ثان ٢١/١٩ - ٢٤)

لا أظن بعد عرض هذه النماذج الموجزة التى تعكس لنا حدة الخصام والعداوة بين بنى إسرائيل، إلى حد وصلت فيه إلى ما يسمى «بالفجر» فى الخصام، إلا أن هذه الحالة المرضية، قد أصبحت «مزمنة» فى الشخصية الإسرائيلية. قد تكمن أعراضها، إذا ما صرفت طاقاتها المكبوتة تجاه الأغيار، وقد تظهر هذه الأعراض كطفح لعين، تنتقل عدواه من سبط إلى آخر، ومن جماعة إلى أخرى، حيث تلعب مصطلحات التكوين الاجتماعى الإسرائيلى (كبيت الأسرة، العائلة، السبط، تحالف الأسباط ....) دورها القذر فى احتدام الخصام، وتأجج نار العداوة.

وفى هذا كله، لا يمكننا إلا أن نقر - بعد عرض شواهد العهد القديم السابقة - بأن بأسهم بينهم شديد حقاً.

١١- رذائــل متـفـرقـة

هناك صفات عديدة، وردت جملة وتفصيلاً فى الأسفار الإسرائيلية المقدسة، تعكس أبعاداً جديدة للشخصية الإسرائيلية. فورودها تفصيلاً نراه فى مواقف «الأنا» من «الآخر» أياً كان هذا الآخر : أجنبى أم إسرائيلى، أما ورودها مجملة، فقد برز فى «هجمات» الأنبياء «وحملاتهم» التأديبية التى قادوها ضد قومهم.

فالوشاية مثلاً : نجدها متجسدة وبخاصة فى فترة ما بعد انقسام المملكة، فما أسهل أن يشى إسرائيلى بآخر، وتكون العاقبة وخيمة (انظر مثلاً صموئيل الثانى ١٩/٢٦ - ٢٧ وغيرها).

ونجد النبى إرمياء يوجز القول فى هذا الخلق الذميم قائلاً :

> **«احترزوا كل واحد من صاحبه. وعلى كل أخ لا تتكلوا، لأن كل أخ يَعْقِبُ عقباً، وكل صاحب يسعى فى الوشاية». (٩/٤)**

على النحو السابق يصور لنا إرمياء العلاقات بين الإخوة والأصحاب، تلك العلاقات التى يميزها «السعى فى الوشاية» وكلمة السعى تشير إلى استهداف هذا السلوك، فهو لايقع عرضاً أو عفواً، وإنما مع سبق الإصرار والترصد.

وعـدم الحـيــاء أيضاً قد أصبح من سمات هذه الشخصية فى بعض عصورها. والحياء أو الخجل مطلوب، فالذى لا يعرف الخجل والحياء، يرتكب كل الموبقات، دون أن يشعر بفداحة ما يفعل، وقد قيل : **إن لم تستحى، فافعل ما شئت**.

يقول النبى إرمياء واصفاً قومه :

«هل خزوا لأنهم عملوا رجساً. بل لم يخزوا خزياً، ولم يعرفوا الخجل».

والســـب أيضاً شاع بين هؤلاء القوم. فها هو شاول يسب ابنه بلا حياء، فيجمع بين السوأتين : عدم الحياء والسب.

«فحمى غضب شاول على يوناثان (ابنه) وقال له يا ابن المتعوجة المتمردة أما علمت أنك قد اخترت ابن يسى لخزيك وخزى عورة أمك ....» (صموئيل أول ٢٠/ ٣٠)

بهذه البذاءات، يخاطب الملك شاول ابنه، ويسبه، ويسب أمه، التى هى بالطبع زوج شاول.

وإذا كان هذا هو نهج الملوك، فما بالنا بالرعاع.

إن النبى إشعياء يخبرنا بسلوك قطاع كبير من هؤلاء العامة. فهم حين يجوعون، يسبون. ولكن من يسبون ويشتمون :

«ويكون حينما يجوعون أنهم يحنقون ويسبون ملكهم وإلههم، ويلتفتون إلى فوق». (إشعياء ٨/ ٢١)

هكذا يفعلون بلا حياء أو خجل، بل وبلا إيمان أو تقوى.

يسـبون الملك، ويسبون إلههم.

وتأكيداً على سبهم للإله، ينظرون إلى فوق، حتى لا يتوهم البعض أن هذا السباب موجه لمن على الأرض، فهو موجه لمن فى السماء.

كما أن **الفسق** - وهو لفظ شامل لكثير من وجوه الرذيلة - قد أصبح كذلك ديدن الإسرائيليين، حيث يصور لنا «هوشع» سبيل الشخصية الإسرائيلية وسلوكها بكلمتين مختصرتين جامعتين :

«كلهم فاسقون» (هوشع ٧/٤)

وتحت هذا العنوان البليغ، بإمكاننا أن نكتب كل ما يمكن أن يكتب من آثام وشرور ورذائل، ارتكبها الإسرائيليون خلال تاريخهم.

لاشك أن **الاستهزاء والسخرية** من الآخرين صفة ذميمة رذيلة، وهى تعكس فى حد ذاتها العديد من الصفات الدنيئة الأخرى التى تمكنت من شخصية المستهزئ كالاستعلاء والتكبر وعقد النقص المتملكة منه.

والطامة الكبرى هنا، أن الاستهزاء الإسرائيلى موجه من «الشعب» إلى «الرب» و«رسل الرب». وهذا ما نجده فيما يلى :

> **«فأرسل الرب إله آبائهم إليهم عن يد رسله مبكراً ومرسلاً لأنه شفق على شعبه وعلى مسكنه. فكانوا يهزأون برسل الله ورذلوا بكلامه وتهاونوا بأنبيائه حتى ثار غضب الرب على شعبه حتى لم يكن شفاء».** (أخبار الأيام الثانى ٣٦/١٥ - ١٦)

«فاسترذال» كلام الرب و«التهاون» به، ليس إلا استهزاءً به وسخرية منه.

> **«فكان السعاة يعبرون من مدينة إلى مدينة في أرض افرايم ومنسى حتى زبولون فكانوا يضحكون عليهم ويهزأون بهم».** (أخبار الأيام الثانى ٣٠/١٠)

وهذا هو نهجهم وسلوكهم فيما بينهم، وهم بذلك يضيفون «رذيلة» أخرى إلى رذائلهم.

الفصل الرابع

الشخصية الإسرائيلية في علاقاتها مع الآخرين



الشخصيـة الإسـرائيليـة فى علاقاتها مـع الآخرين

١- العنصـريـــة

يشكل العنصر الإسرائيلى حجر الزاوية فى العهد القديم، فالإنسان فى حد ذاته ليس هدفاً لا للرب ولا للأنبياء، إنما الهدف الصفوة.

واختيار قـوم وتفضيلهم على سائر الأقـوام مقبول، إذا كان لهذا الاختيار مبررات أخـلاقيـة، أما إذ لم يكن ثمة مبرر، فإن القضية هنا تعد انحرافاً لأبسط صور العدل والنزاهـة.

وفى البدايات الأولى لتاريخ البشرية، حيث لم يكن هناك سوى نوح ومن معه من نسائه وأولاده الثلاثة : **«بارك الله نوحاً وبنيـه»** (تكوين ١/٩)، وأقـام الرب عـهده مـعـهم **«وكلم الله نوحاً وبنيه معه قائلاً : وها أنا مقيم ميثاقى معكم ومع نسلكم من بعدكم»** (تكوين ٩/٨-٩).

والميـثـاق هنا هو **«لا ينقرض كل ذى جسد أيضاً بمياه الطوفان، ولا يكون أيضاً طوفان ليخرب الأرض»** (تكوين ١١/٩)

ولم يكن الميثاق مع الإنس وحسب، بل كـان **«مع كل ذوات الأنفس الحيـة التى معكم : الطيور والبهائم وكل وحوش الأرض التى معكم من جميع الخارجين من الفلك حتى كل حيوان الأرض»**. (تكوين ٩/١٠)

لكن سرعان ما تتدخل الأساطير لتبدأ عملية تمييز بين أصحاب العهد من نسل نوح، وبعد «تمثيلية هزلية» يتم اصطفاء سام ويافث، ولعن كنعان (تكوين ٩/ ٢٠ -٢٧)، وكنعان هو حفيد نوح، وابن حام، ولا نعلم السر فى لعن ابن حام مع أن الأب - حام - هو الذى اطلع على عورة أبيه ولم يسترها، بعدما فقد الأب - نوح - وعيه نتيجة الخمر التى احتساها.

ولا نعلم أيضاً لم تمت «خصخصة» اللعنة فى كنعان من نسل حام، مع أن حام قد ولد كوش ومصرايم وفوط. (تكوين ١٠/٦)

هذه بدايات «العنصرة»، التى سادت معالمها فيما بعد أحداث تاريخ إسرائيل، إذ كان لابد من عملية «تصفية عرقية» لنسل نوح، حتى يتحقق الهدف المنشود من وراء كتابة هذه النصوص، وهو : اختيار إسرائيل.

ثم تأتى تصفية أخرى. إبراهيم يعتزل ابن أخيه لوط :

> **«فقال أبرام للوط : لا تكن مخاصمة بينى وبينك وبين رعاتى ورعاتك لأننا نحن أخوان. أليست كل الأرض أمامك. اعتزل عنى. إن ذهبت شمالاً فأنا يميناً، وإن يميناً فأنا شمالاً».** (تكوين ١٣/٨-٩)

وسكن أبرام فى أرض كنعان، بينما اختار لوط كل دائرة الأردن، ليكون هذا الاعتزال تمهيداً للاختيار الإلهى لأبرام ومكافأته :

> **«لأن جميع الأرض التى أنت ترى أعطيها لك ولنسلك إلى الأبد».** (تكوين ١٣/١٥)

وهذا النسل الإبراهيمى ليس محدوداً فى عدده وكمه :

> **«انظر إلى السماء وعد النجوم إن استطعت أن تعدها. وقال (الرب) له هكذا يكون نسلك».** (تكوين ١٥/٥)

ولا أظن أن العبريين أو الإسرائيليين ينطبق عليهم هذا الوصف، فهم أقلية فى كل بلد، وأقلية فى العالم كله، هذا إذا سرنا مع نصوص سفر التكوين وصدقناها فى قصر النسل على إسرائيل من نسل إبراهيم، إذ بعد فقرات معدودة مما سبق، تفيد النصوص أن المقصود بالنسل هم ذرية يعقوب فقط، ودليلنا هو :

«فقال (الرب) لأبرام : اعلم يقيناً أن نسلك سيكون غريباً فى أرض ليست لهم (مصر) ويستعبدون لهم. فيذلونهم أربعمائة سنة ...». (تكوين ١٥/١٣)

ومعلوم أن بنى إسرائيل فقط، هم الذين عاشوا فى مصر قرابة هذه الفترة، ولا ينبطق هذا الحكم إلا عليهم فقط من نسل إبراهيم.

ويعلن الرب صراحة عن عهده وميثاقه. فمن أصحاب العهد والميثاق ؟، وما هو فحوى ومضمون هذا الميثاق ؟!

«فى ذلك اليوم قطع الرب مع أبرام ميثاقاً قائلاً : لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات ...».
(تكوين ١٥/١٨)

فأصحاب الميثاق هنا هم نسل أبرام، ومضمون الميثاق هنا هو منحهم الأرض من نهر مصر إلى الفرات.

ولكن من هم نسل أبرام ؟

هل هم تلك الكثرة التى لا تعد والواردة فى (تكوين ١٥/٥)، أم تلك القلة التى ستعيش فى مصر أربعمائة عام فقط؟!

وتتوالى عملية «العنصرة» لمضمون التاريخ الابراهيمى وأحداثه.

يتزوج أبرام من ساراى التى لم تلد لزوجها، ويتزوج أبرام من جارية ساراى، وهى هاجر المصرية، التى يبشرها ملاك الرب بكثرة النسل، وهى ذات البشرى التى بشر بها الرب أبرام من قبل :

«فقال لها (لهاجر) ملاك الرب ارجعى إلى مولاتك واخضعى تحت يديها. وقال لها ملاك الرب : تكثيراً أكثر نسلك، فلا يعد من الكثرة». (تكوين ١٦/٩ - ١٠)

هناك ترابط إذن بين بشرى الرب لأبرام بكثرة نسله، وبميثاق الأرض، وببشرى الرب لهاجر بكثرة النسل.

وتمضى عملية «العنصرة»، ويكرر الرب وعده لأبرام بكثرة النسل، ومنح الأرض لهذا النسل :

«وتكلم الله معه (مع أبرام) قائلاً : أما أنا فهوذا عهدى معك وتكون أباً لجمهور من الأمم، فلا يدعى اسمك بعد أبرام، بل يكون اسمك ابراهيم. لأنى أجعلك أباً لجمهور من الأمم. وأثمرك كثيراً جداً وأجعلك أمماً. وملوك منك يخرجون. وأقيم عهدى بينى وبينك وبين نسلك من بعدك فى أجيالهم عهداً أبدياً. لأكون إلهاً لك ولنسلك من بعدك. وأعطى لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك : كل أرض كنعان، وملكاً أبدياً. وأكون إلههم». (تكوين١٧/٣-٨)

هنا تختفى ملامح العنصرة قليلاً. فاختيار الرب لأبرام ونسله ومنحهم الأرض مرتبط بعبادة النسل الإبرامى للرب. وهذا مقبول من رب خالق، يكافئ خلقه بما يشاء من خلقه.

والفقرات السابقة تؤكد على أن نسل أبرام : جمهور من الأمم، كثيرون جداً، بل هم أمم، أى ليسوا شعباً واحداً أو أمة واحدة.

والفقرات السابقة جاءت عندما كان لأبرام اسماعيل الذى انجبته له هاجر، ومن ثم انصرف ذهن أبرام - الذى أصبح إبراهيم لارتباط ذلك الاسم بكثرة النسل - إلى ابنه إسماعيل، لكن «العنصرة» تأبى إلا أن تغير مجرى التاريخ لصالحها، فيحدد الرب -

دون معرفة الأسباب - انتقاء «بعض» نسل إبراهيم ليشمله الوعد والميثاق، واستبعاد «البعض» الآخر، وعملية التبعيض العنصرية تتضح بجلاء فى النص التالى :

«وقال إبراهيم لله ليت اسماعيل يعيش أمامك. فقال الله بل سارة امرأتك تلد لك ابنا وتدعو اسمه اسحق. وأقيم معه عهداً أبدياً لنسله من بعده. وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه. هأنا أباركه وأثمره وأكثره كثيراً جداً. اثنى عشر رئيساً يلد وأجعله أمة كبيرة. ولكن عهدى أقيمه مع اسحق الذى تلده لك سارة فى هذا الوقت فى السنة الآتية». (تكوين ١٧/١٨ - ٢١)

هكذا يتم إلغاء حق مشروع - حسب النصوص السابقة - لإسماعيل، وهكذا يمنح الحق لآخر، لم يولد بعد، دون إبداء الأسباب.

إنها البداية الحاسمة التى وجهت تاريخ البشرية منذ هذا العهد وحتى تلك اللحظات التى أسطر فيها تلك الكلمات.

وكانت أولى ثمار التفرقة بعد أن ولدت سارة اسحق، وبمجرد أن رأت اسماعيل - ابن هاجر- يمزح، ثارت ثائرتها، وأصدرت أمرها لزوجها، ويارك الرب أقوالها وأفعالها:

«ورأت سارة ابن هاجر المصرية الذى ولدته لإبراهيم يمزح. فقالت لإبراهيم : اطرد هذه الجارية وابنها لأن ابن الجارية لا يرث مع ابنى اسحق. فقبح الكلام جداً فى عينى إبراهيم لسبب ابنه. فقال الله لإبراهيم : لا يقبح فى عينيك من أجل الغلام ومن أجل جاريتك. فى كل ما تقول لك سارة اسمع لقولها». (تكوين ٢١/٩ - ١٢)

لقد حاول بعض المفسرين تأويل «مزاح» اسماعيل بأنه «تنكيت» على سارة [1]، وآخرون فسروه بأنه كان «يضطهدها» كما فسره هرطوم بأنه كان يسخر من إبراهيم أبيه

١- أ.ف. كيفن ، «تفسير سفر التكوين» فى «تفسير الكتاب المقدس»، جـ١/ ١٨١.

وساره لفرحهما بابنهما اسحق، ويبدو أنه فعل ذلك وهو سكران [1]، لكن ليس هناك ما يشير فى النص إلى هذه التأويلات التى حتى لو صدقت، ما استحق أن يكون عقابها الحرمان من وعد الله وميثاقه.

إن المنطقى فى القصة هو غيرة سارة من حب إبراهيم لإسماعيل الذى كان يمزح مع أبيه، ورغبتها «العنصرية» الدفينة فى استصدار حكم شرعى ما يحرم به اسماعيل من كل حقوقه فى الميراث. [2]

والأدهى من ذلك، أن النص السابق، يمنح سارة حق التشريع، كما يأمر إبراهيم بالسمع والطاعة فى كل ما تقول له سارة.

وقبل أن يقضى إبراهيم نحبه، نراه يبث فى شخصية اسحق بذور كراهية كنعان ونسله، عندما يأمر القائم على أمر بيته بحظر السماح لاسحق بالزواج من بنات الكنعانيين الذين يسكن ابراهيم بينهم، بل عليه أن يزوجه من أهله وعشيرته (تكوين ٩٣/٢٤)، ولم يحدد لنا إبراهيم العلة، إلا إذا كان ينبش فى رماد التفرقة التى تمت منذ عصر نوح بين أبنائه الثلاثة.

ويتزوج اسحق من رفقة بنت بتوئيل الأرامى أخت لابان الأرامى من فدان أرام :

> **«وصلى اسحق إلى الرب لأجل امرأته لأنها كانت عاقراً. فاستجاب له الرب فحبلت رفقة امرأته. وتزاحم الولدان فى بطنها فقالت إن كان هكذا فلماذا أنا. فمضت لتسأل الرب. فقال لها الرب فى بطنك أمتان. ومن أحشائك يفترق شعبان.شعب يقوى على شعب. وكبير يستعبد لصغير».** (تكوين ٢١/٢٥ - ٢٣)

١- تفسير هرطوم، سفر التكوين، ص ٧٨.

٢- المرجع السابق، ص ١٨٢.

وتلك مرحلة جديدة من مراحل **«عنصرة التاريخ»**. أم واحدة، وأب واحد، استحوذا على عهد الرب وميثاقه بعد عملية «بتر» اجتماعى قانونى، ينجبان ولدين.

وما بنى على «العنصرة»، لابد وأن يثمر «عنصريات» أخر، تمثلت هنا فى التمايز بين المولودين ونسليهما : «شعب يقوى على شعب، وكبير يستعبد لصغير».

والأب، اسحق، يحب الكبير عيسو.

والأم، رفقة، تحب يعقوب.

وتبدأ عملية صراع «لا أخلاقى» تتزعمه الأم وابنها المدلل يعقوب.

ولما لم يكن ثمة مبرر منطقى لانتزاع حق البكورة الذى يستلزم ميراث العهد والميثاق الإبراهيمى من عيسو، كان لابد من «فصل هزلى» آخر من فصول تلك القصة التى نحن بصددها. ومن هنا كانت خدعة يعقوب لأبيه، واستغلاله لأخيه، لينفرد بالوعد الإلهى، والميثاق الربانى، وكأن كاتب هذه القصة أراد بنا - نحن القراء - أن نغمض أعيننا، ونوقف عقولنا عن العمل، لنؤمن بأن الرب كان فى غير وعيه، ليمنح وعده وميثاقه بالبركة والأرض واستعباد الأمم لنسل مخادع مستغل، والقصة مبسوطة لمن أراد، على صفحات سفر التكوين. (الإصحاحان ٢٥؛ ٢٧)

وقبيل وفاة اسحق، يستدعى يعقوب ليملى عليه ميراث العنصرية : **«لا تأخذ زوجة من بنات كنعان»**. (تكوين ١/٢٨) ومن الغريب ألا يفعل ذلك اسحق مع ابنه الآخر - البكر الشرعى - عيسو.

والمطرودون من الميثاق والعهد يلتقون، إذ **ذهب عيسو إلى اسماعيل وأخذ محلة بنت اسماعيل بن ابراهيم أخت بنايوت زوجة له على نسائه»**. (تكوين ٩/٢٨)

ويتم توثيق العهد من جديد، مع المالك الجديد، مع أن الموثق هنا - وهو إله بنى إسرائيل - كان يعرف بالطبع أن الصفقة برمتها غير قانونية وغير شرعية، لكنها أصول العنصرية التى تستلزم أن يغض «المخرج» الطرف عما لا يريد إبرازه للجمهور.

ويظهر الرب نفسه - تكريماً ليعقوب - في الحلم، ويمنح صك التوثيق ليعقوب ونسله :

«أنا الرب إله إبراهيم أبيك وإله اسحق. الأرض التي أنت مضطجع عليها أعطيها لك ولنسلك، ويكون نسلك كتراب الأرض».
(تكوين ٢٨/١٣- ١٤)

ومع أن نسل يعقوب - حتى الآن - لم يكن كتراب الأرض كثرة، إلا أن النص السابق يقدم لنا «وارثاً» جديداً للميثاق، بعد أن تم حصر عدد «الورثة»، واستبعاد عيسو ونسله من الميراث. [1]

ويمكن القول بناءً على ما سبق من نصوص، إن فكرة الاختيار المبنية على نقاء العنصر الإسرائيلي - اليعقوبي بخاصة - قد ترسخت في الشخصية الإسرائيلية منذ ذلك العصر، وكان لأبناء يعقوب ممارسات تعكس هذا الاعتقاد.

وأول محك للعنصرية الإسرائيلية وجدناه في قصة أبناء يعقوب مع حمور وشكيم.

أما شكيم بن حمور الحوى «رئيس الأرض» (تكوين ٣٤/٢) فقد أحب دينة بنت يعقوب واضطجع معها ثم رغب في الزواج منها :

«وتكلم حمور معهم (مع أبناء يعقوب وأبيهم) قائلاً : شكيم ابني قد تعلقت نفسه بابنتكم. أعطوه إياها زوجة. وصاهرونا. تعطوننا بناتكم وتأخذون لكم بناتنا.. وتسكنون معنا وتكون الأرض قدامكم. اسكنوا واتجروا فيها وتملكوا بها». (تكوين ٣٤/٨ - ١٠)

١- حول هذا الوعد الإلهي، انظر : مراد كامل، إسرائيل في التوراة والإنجيل، دار المعرفة، القاهرة، ط٢، ١٩٦٧، ص : ٢٤ وما بعدها؛ وانظر كذلك : كمال أحمد عون، اليهود من كتابهم المقدس، الشعب، القاهرة، د.ت، ص ١٧ وما بعدها.

عرض من قبل حمور وشكيم «بتطبيع العلاقات» بين الجانبين. لكن الطرف الأول لا يدرك طبيعة «المفاوض» الإسرائيلى، الذى تتضح اتجاهاته فى الرد التالى :

«فأجاب بنو يعقوب شكيم وحمور أباه بمكر وتكلموا لأنه كان قد نجس دينة أختهم. فقالوا لهما لا نستطيع أن نفعل هذا الأمر، أن نعطى أختنا لرجل أغلف لأنه عار لنا. غير أننا بهذا نواتيكم : إن صرتم مثلنا بختنكم كل ذكر، نعطيكم بناتنا ونأخذ لنا بناتكم ونسكن معكم ونصير شعباً واحداً. وإن لم تسمعوا لنا أن تختتنوا نأخذ ابنتنا ونمضى». (تكوين ٣٤/١٣ - ١٧)

ولأن حمور وابنه شكيم كانا من دعاة السلام، فقد قبلا الشرط القاسى المطلوب كثمن لهذا السلام : اختتان كل ذكر، وهم على كبر سنهم، وما فى ذلك من ألم وعذاب.

وتم الاتفاق، وأعلنت شروطه على الملأ فى شبه استفتاء عام صوره لنا النص المقدس:

«هؤلاء القوم (بنو إسرائيل) مسالمون لنا، فليسكنوا فى الأرض ويتجروا فيها. وهو ذا الأرض واسعة الطرفين أمامهم. نأخذ لنا بناتهم زوجات ونعطيهم بناتنا. غير أنه بهذا فقط يواتينا القوم على السكن معنا لنصير شعباً واحداً. بختننا كل ذكر كما هم مختونون ... فسمع لحمور وشكيم ابنه جميع الخارجين من باب المدينة واختتن كل ذكر، كل الخارجين من باب المدينة». (تكوين٣٤/٢١ - ٢٤)

وهكذا ترسم لنا الفقرات السابقة وما قبلها الخطوط العريضة لاتفاقية السلام المبرمة بين بنى إسرائيل من جانب، وحمور رئيس الأرض وشكيم ابنه من جانب آخر :

١- التطبيع الكامل للعلاقات.

٢- اختتان كل ذكر من أهل المدينة.

وقد أوفى الحويون بما أملاه عليهم الاتفاق «واختتن كل ذكر».

أما الجانب الإسرائيلى فقد كان رد فعله قاسياً عنيفاً :

«فحدث فى اليوم الثالث إذ كانوا (أهل المدينة) متوجعين أن ابنى يعقوب شمعون ولاوى أخوى دينة أخذا كل واحد سيفه، وأتيا على المدينة بأمن وقتلا كل ذكر وقتلا حمور وشكيم ابنه بحد السيف. وأخذا دينة من بيت شكيم وخرجا. ثم أتى بنو يعقوب على القتلى ونهبوا المدينة لأنهم نجسوا أختهم : غنمهم وبقرهم وحميرهم وكل ما فى المدينة وما فى الحقل أخذوه. وسبوا وانهبوا كل ثروتهم وكل أطفالهم ونساءهم. وكل ما فى البيوت». (تكوين ٣٤/٢٥- ٢٩)

وعلى نحو ما سبق يتبين لنا كيف كان موقف أبناء يعقوب من اتفاق السلام مع الحويين : أسلوبهم فى التفاوض، شروطهم المجحفة القاسية، ثم عدم التزامهم ببنود الاتفاق.

ولا يخفى علينا السبب الرئيس وراء ذلك، وهو عدم الرغبة فى الاندماج بغير جنسهم من أبناء الأمم الأخرى، مهما قدم الآخرون من تنازلات. إن المحافظة على «العنصر» الإسرائيلى فوق كل اتفاق، وتسوغ كل تصرف، حتى وإن وصل إلى «إبادة» شعب آخر، بقتل كل ذكر، ومن ثم انقراض هذا الشعب.

وعدم الاختلاط بالأمم الأخرى هو شريعة ربانية، الهدف منها عدم تقليدهم فى كفرهم، لكن لا نفهم سر النهى عن قطع أى عهود معهم، إلا إذا كان الهدف الحقيقى هو الحفاظ على «نقاء العنصر» بين بنى إسرائيل. فلو أن الرب يهدف عدم الشرك به لاكتفى بأوامره فى الوصايا العشر وغيرها، لكن الإصرار على عدم الاختلاط يعنى شيئاً آخر بالنسبة لبنى إسرائيل :

«احفظ ما أنا موصيك اليوم. ها أنا طارد من قدامك الأموريين والكنعانيين والحثيين والفرزيين والحويين واليبوسيين، احترز من أن

تقطع عهداً مع سكان الأرض التى أنت آتٍ إليها لئلا يصيروا فخاً فى وسطك. بل تهدمون مذابحهم وتكسرون أنصابهم وتقطعون سواريهم. فإنك لا تسجد لإله آخر. لأن الرب اسمه غيور. إله غيور هو. احترز من أن تقطع عهداً مع سكان الأرض. فيزنون وراء آلهتهم ويذبحون لآلهتهم فتدعى وتأكل من ذبيحتهم وتأخذ من بناتهم لبنيك. فتزنى بناتهم وراء آلهتهن ويجعلن بنيك يزنون وراء آلهتهن». (خروج ٣٤/١١ - ١٦)

ثم يأتى تفصيل ربانى لموقف بنى إسرائيل من الأمم الأخرى على النحو التالى :

«متى أتك بك الرب إلهك إلى الأرض التى أنت داخل إليها لتمتلكها وطرد شعوباً كثيرة من أمامك : الحثيين، والجرجاشيين والأموريين والكنعانيين والفرزيين والحويين واليبوسيين سبعة شعوب أكثر وأعظم منك، ودفعهم الرب إلهك أمامك وضربتهم، فإنك تحرمهم. لا تقطع لهم عهداً ولا تشفق عليهم. ولا تصاهرهم. بنتك لا تعط لابنه، وبنته لا تأخذ لابنك : لأنه يرد ابنك من ورائى فيعبد آلهة أخرى، فيحمى غضب الرب عليكم ... لأنك أنت شعب مقدس للرب إلهك. إياك قد اختار الرب إلهك لتكون له شعباً أخص من جميع الشعوب الذين على وجه الأرض. ليس من كونكم أكثر من سائر الشعوب التصق الرب بكم واختاركم، لأنكم أقل من سائر الشعوب. بل من محبة الرب إياكم وحفظه القسم الذى أقسم لآبائكم...». (تثنية ٧/١-٨)

وبتحليل النص السابق، تبرز دوافع أوامر الرب بعدم الاختلاط بالشعوب والأمم الأخرى التى عاصرت بنى إسرائيل فى ذلك الوقت :

١- الخوف على بنى إسرائيل من عبادة الآلهة الأخرى.

٢- الحفاظ على قداسة إسرائيل.

٣- «خصخصة الشعب» و«خصخصة الإله».

٤- الحب الإلهى لبنى إسرائيل والوفاء بالقسم لآبائهم.

ولا تخفى على من يطلع على النص السابق ومحتوياته، بذور العنصرية، التى غرسها الرب فى الشخصية الإسرائيلية، ورعاها الكثيرون من بنى إسرائيل خلال تاريخهم على نحو ما سجل فى أسفار العهد القديم.

وقد أدرك يشوع ضرورة المحافظة على النقاء العنصرى الإسرائيلى فقام بتحذير شعبه قائلاً :

«ولكن إذا رجعتم ولصقتم ببقية هؤلاء الشعوب أولئك الباقين معكم وصاهرتموهم ودخلتم إليهم وهم إليكم. فاعلموا يقيناً أن الرب إلهكم لا يعود يطرد أولئك الشعوب من أمامكم فيكونوا لكم فخاً وشركاً وسوطاً على جوانبكم وشوكاً فى أعينكم حتى تبيدوا عن تلك الأرض الصالحة التى أعطاكم إياها الرب إلهكم». (يشوع ١٢/٢٣ - ١٣)

وأخذ إشعياء على قومه اختلاطهم بالأجانب، وعاب عليهم ذلك :

«يا بيت يعقوب هلم فَنَسْلُكُ فى نور الرب. ورفضت شعبك بيت يعقوب لأنهم امتلأوا من المشرق وهم عائفون كالفلسطينيين ويصافحون أولاد الأجانب». (إشعياء ٥١-٦)

ويرى المفسرون [١] أن هذه الفقرات تشير إلى خطية يهوذا، وتتمثل فى أربعة مظاهر هى :

١- و.فتش «تفسير سفر إشعياء» فى تفسير الكتاب المقدس، جـ٤/٣٢.

١- الارتباط بالأمم الأجنبية.

٢- محاكاة هذه الأمم الغريبة فى الاستبعاد لمارساتها الوثنية.

٣- الاتكال على موارد مادية وحربية بحتة.

٤- عبادة الأوثان.

ففى عبارة «يصافحون أولاد الأجانب» إشارة إلى الاختلاط والاندماج بالأمم الأخرى، وهى جريمة تستحق سخط الرب وعقابه.

ويفخر الرب بالتمييز بين يعقوب وعيسو، دون وجود سبب منطقى لرضاه وغضبه فيقول :

> **«أحببتكم قال الرب. وقلتم بم أحببتنا. أليس عيسو أخاً ليعقوب يقول الرب وأحببت يعقوب. وأبغضت عيسو وجعلت جباله خرابا وميراثه لذئاب البرية».** (ملاخى ١/٢-٣)

المشكلة تكمن حقيقة فى الآثار التى ترتبت على عملية الاختيار الإلهى لإسرائيل فهم : خيار من خيار، دون مبرر أخلاقى لذلك الاختيار، ومن ثم اعتقد الإسرائيليون بقداسة العرق الإسرائيلى، وهذا ما فهمه عزرا واتضح فى كلامه :

> **«ولما كملت هذه تقدم إلى الرؤساء قائلين لم ينفصل شعب إسرائيل والكهنة واللاويون من شعوب الأراضى حسب رجاساتهم من الكنعانيين والحثيين والفرزيين واليبوسيين والعمونيين والموآبيين والمصريين والأموريين. لأنهم اتخذوا من بناتهم لأنفسهم ولبنيهم واختلط الزرع المقدس بشعوب الأراضى وكانت يد الرؤساء والولاة فى هذه الخيانة».** (عزرا ٩/١-٢)

لقد خالف الإسرائيليون أوامر عدم الاختلاط، وتركوا وصايا الرب واعترفوا بذلك (عزرا ٩/١٠)، ثم أدركوا جرمهم وأرادوا معالجة الخطأ، وفى رأينا أن الخطأ هنا لم

يكن متمثلاً فى عبادة آلهة هذه الأمم، لأنه لو كان كذلك لتابوا ورجعوا عن ذلك. أما التخلص من النساء اللاتى تزوج منهن الإسرائيليون، هن وأولادهن، فإنما يعنى التخلص من «العنصر الأجنبى» الذى اختلط بالعنصر الإسرائيلى :

«وأجاب شكنيا بن يحيئيل من بنى عيلام وقال لعزرا : إننا قد خنا إلهنا واتخذنا نساء غريبة من شعوب الأرض. ولكن الآن يوجد رجاء لإسرائيل فى هذا. فلنقطع الآن عهداً مع إلهنا أن نخرج كل النساء والذين ولدوا منهن». (عزرا ١٠/٢-٣)

فلو كانت القضية هنا هى عبادة آلهة غريبة وأوثان، فماذا يجدى إخراج النساء وأولادهن؟!

إنها مسألة اختلاط الأعراق والعناصر، ولابد من محاولة تصحيحها، وذلك عن طريق «استئصال» للأعضاء الغريبة التى نتأت فى الجسد الإسرائيلى آنذاك.

إن النظرة الإسرائيلية الدونية للأمم الأخرى، وتضخم الذات الإسرائيلية واستعلاءها على الأمم والشعوب الأخرى، هو ما دفع شاول لأن يفضل الانتحار على أن يقتل على أيدى الفلسطينيين الغلف، والذين هم رجس ودنس، يستوجب أن يوصم شاول - بعد موته - ويعير فى قومه.

«فقال شاول لحامل سلاحه استل سيفك واطعنى به لئلا يأتى هؤلاء الغلف ويطعنونى ويقبحونى. فلم يشأ حامل سلاحه لأنه خاف جداً. فأخذ شاول السيف وسقط عليه». (صموئيل أول ٣١/٤)

إلى هذا الحد بلغ الإحساس الإسرائيلى بالسمو والتفوق العرقى على الأمم الأخرى.

وكان من الطبيعى أن تتولد عن عنصرية العرق والنسل عنصرية أخرى أقبح وأشنع، ألا وهى عنصرية الأحكام.

ومع وجود بعض الأحكام السامية الأخلاقية التى لا تحمل صور العنصرية فى التعامل مع الأجانب، نقف فى حيرة ونتساءل : هل مصدر هذه الأحكام الأخلاقية هو ذاته مصدر الأحكام العنصرية ؟!

نعم، قليلة تلك الأحكام المنتمية إلى الضرب الأول، ومنها على سبيل المثال :

«لا تظلم أجيراً مسكيناً وفقيراً من اخوتك أو من الغرباء الذين فى أرضك فى أبوابك». (تثنية ١٤/٢٤)

«إذا نزل عندك غريب فى أرضكم فلا تظلموه. كالوطنى منكم يكون لكم الغريب النازل عندكم، وتحبه كنفسك، لأنكم كنتم غرباء فى أرض مصر». (لاويين ١٩/٢٣-٢٤)

«حكم واحد لكم : الغريب يكون كالوطنى. إنى أنا الرب إلهكم». (لاويين ٢/٢٤)

ولكن سرعان ما تتبخر عدالة النصوص السابقة أمام وهج النصوص المضادة التى تفرق بين العنصر الإسرائيلى والعنصر الأجنبى فى كثير من أمور الحياة ومظاهرها.

فالأمر واضح فى النص التالى بالإحسان للمسكين والفقير من بين بنى إسرائيل وفى ديارهم :

«لذلك أنا أوصيك قائلاً : افتح يدك لأخيك المسكين والفقير فى أرضك». (تثنية ١١/١٥)

كما أن الإسرائيلى مطالب بالحكم بالعدل مع قريبه، ولا ندرى ماذا يفعل مع غير القريب :

«بالعدل تحكم لقريبك». (لاويين ٥/١٩)

والإبراء من القروض لا يتم إلا بين الإسرائيلى وأخيه، أما الأجنبى فلا يبرأ، وينبغى أن يدفع ما عليه :

«فى آخر سبع سنين تعمل إبراء. وهذا هو حكم الإبراء. يبرئ كل صاحب دين يده مما أقرض صاحبه. لا يطالب صاحبه ولا أخاه لأنه قد نودى بإبراء للرب. الأجنبى تطالب وأما ما كان لك عند أخيك فتبرئه يدك منه». (تثنية ١٥/١ - ٣)

وقد علل هرطوم عدم تبرئة الأجنبى فى مقابل تبرئة الإسرائيلى، بأن التعامل مع الأجنبى يأتى فى إطار «التجارة»، أما مع الإسرائيلى فهو إحسان وعمل خير. [١]

وعملية الاقتراض قد نالت من التشريع الإسرائيلى اهتماماً بالغاً. ومن المعروف أن القرض مرتبط بالربا العائد من ورائه، ولكن هذه «الفائدة الربوية» يحركها كذلك الانتماء العنصرى.

«إذا سمعت صوت الرب إلهك لتحفظ وتعمل كل هذه الوصايا التى أنا أوصيك بها اليوم. يباركك الرب إلهك كما قال لك. فتقرض أمماً كثيرة وأنت لا تقترض وتتسلط على أمم كثيرة وهم عليك لا يتسلطون». (تثنية ١٥/٥ - ٦)

وجاء أيضاً :

«... فتقرض أمماً كثيرة وأنت لا تقترض». (تثنية ١٣/٢٨)

وقد حاول أصحاب تفسير السنن القويم معالجة القضية على غير معناها الحقيقى، فزعموا أن القرض هنا بمعنى السيادة [٢]، لكن النص التالى يدحض مزاعمهم.

«لاتقرض أخاك بربا. ربا فضة أو ربا طعام أو ربا شئ مما يقرض بربا. للأجنبى تقرض بربا ولكن لأخيك لا تقرض بربا لكى يباركك الرب إلهك فى كل ما تمتد إليه يدك فى الأرض التى أنت داخل إليها لتمتلكها». (تثنية ١٩/٢٣ - ٢٠)

١- انظر تفسير هرطوم لسفر التثنية، ص ٥٤.

٢- ٤٢١/٢.

فلو كان القرض بمعنى السيادة، فما علاقته بالربا هنا ؟

وهذا النص الأخير يضم نهياً وأمراً. أما النهى فهو عن إقراض الإسرائيلى لأخيه أى نوع من أنواع القروض بربا. وأما الأمر فهو إقراض الأجنبى بالربا، والهدف من ذلك **«لكى يباركك الرب إلهك فى كل ما تمتد إليه يدك فى الأرض التى أنت داخل إليها لتمتلكها»**.

فكأن مراباة الأجانب «عبادة»، إذ هى تستوجب بركة الرب على القائم بها، كما أنها ربطت هنا بالعبارة السحرية «الأرض التى أنت داخل إليها لتمتلكها»، وهى كفيلة بإيقاظ روح «المراباة» وإشعال فتيلها فى النفس الإسرائيلية.

وتنتقل العنصرية إلى مجال آخر من محاولات الحياة، إنه مجال الأكل والطعام، وفيه نصوص عديدة منها :

> **«وقال الرب لموسى وهارون هذه فريضة الفصح. كل ابن غريب لا يأكل منه. ولكن كل عبدٍ رجلٍ مبتاع بفضة تختنه ثم يأكل منه. النزيل والأجير لا يأكلان منه . ... وإذا نزل عندك نزيل وصنع فصحاً للرب فليختتن منه كل ذكر ثم يتقدم لبعضه فيكون كمولود الأرض. وأما كل أغلف فلا يأكل منه. تكون شريعة واحدة لمولود الأرض وللنزيل النازل بينكم. ففعل جميع بنى إسرائيل كما أمر الرب موسى وهارون هكذا فعلوا».** (خروج ١٢/٤٣ - ٥٠)

ولا تذكر التفاسير سبباً لحرمان ابن الغريب والنزيل والأجير، والأجير كما فسره أصحاب تفسير السنن القويم هو الغريب عن الدين.[1] أمـا من أراد أن يأكل من الفصح فعليه أن يختتن. إن قطعة من خبز الفصح تستلزم من آكلها ختاناً يعيش بآلامه أياماً عدة، ولا نعلم تبريراً لذلك سوى حرمان الجوعى من أبناء الأمم الأخرى من هذا

١- ٣٦٥/١.

الأكل الخاص، ليبقى مرتبطاً بأصحابه فقط، وليشهد على تكريس «العنصرة» بين أبناء إسرائيل المحتفلين بالفصح.

ويحرق الطعام ولا يأكله الجياع من الأجانب. هكذا حكم الرب في الشريعة الإسرائيلية، لأن الطعام الإسرائيلي مقدس، والآكل من غير الإسرائيليين نجس، وربما كان الخوف من أن يؤدى الطعام المقدس إلى قداسة الآكل النجس، ومن هنا جاء التحريم في النص التالي :

«وأما كبش الملء فتأخذه وتطبخ لحمه في مكان مقدس. فيأكل هارون وبنوه لحم الكبش والخبز الذي في السلة عند باب خيمة الاجتماع. يأكلها الذين كُفِّر بها عنهم لملء أيديهم لتقديسهم. وأما الأجنبي فلا يأكل لأنها مقدسة. وإن بقى شئ من لحم الملء أو من الخبز إلى الصباح تحرق الباقي بالنار. لا يؤكل لأنه مقدس» (خروج ٢٩/٣١ - ٣٤)

أما إذا أخذنا بآراء أصحاب السنن في أن المقصود بالأجنبي من هو ليس من الكهنة، [١] فتلك عنصرية أخرى داخل الجماعة الواحدة، حيث تتميز فيها مجموعة على أخرى في أمور هي ملك للجميع، ينبغي أن يكون الناس فيها سواسية، إذ هي كالماء والهواء.

ومعروف أن أكل الجثث ينقل الأمراض، ومن ثم فهي لا تؤكل لأن ضررها لا يفرق بين شعب مقدس وآخر مدنس. لكن التشريعات التثنوية تحظر أكل الإسرائيلي للجثث وتبيح له أن يعطيها للغريب، فلا بأس أن تؤدى مثل هذه الجثث إلى موت الغرباء، لكن شعب الرب المقدس، منزه عن مثل تلك الخصال، وينبغي الحفاظ عليه وعلى صحته :

«لا تأكلوا جثة ما. تعطيها للغريب الذي في أبوابك فيأكلها أو يبيعها للأجنبي، لأنك شعب مقدس للرب إلهك». (تثنية١٤/٢١)

١- انظر ١/٤٧١.

ومن الغريب أن تتغاضى تفاسير هذه النصوص عن إبراز الحكمة من وراء هذه النصوص، أو حتى التعليق عليها.

أما سفر اللاويين فيمنع أكل القدس من قبل النزلاء والأجراء والأجانب، مع مراعاة أن أصحاب السنن يرون أن المقصود بهؤلاء الأجانب هنا من هم ليسوا من نسل هارون[1]، وعليه، فإن النص الكهنوتي التالي يحرم أكل القدس بين النزلاء والأجراء وممن هم ليسوا من نسل هارون، أي يحرمه على بعض طوائف إسرائيل. فهناك إذن عنصرية طرفاها إسرائيل وغير إسرائيل، وهناك عنصرية أخرى طرفاها اللاويون وغير اللاويين داخل إسرائيل :

> **«وكل أجنبي لا يأكل قدساً. نزيل كاهن وأجيره لا يأكلون قدساً. لكن إذا اشترى كاهن أحدا شراء فضة فهو يأكل منه والمولود في بيته. هما يأكلان من طعامه. وإذا صارت ابنة كاهن لرجل اجنبي لا تأكل من رفيعة الأقدس. وأما ابنة الكاهن صارت أرملة أو مطلقة ولم يكن لها نسل ورجعت إلى بيت أبيها كما في صباها فتأكل من طعام أبيها. لكن كل أجنبي لا يأكل منه».** (لاويين ٢٢/١٠ - ١٣)

ويتمادى الكهنة في «عنصرة» شريعة إسرائيل، فيمنع شراء الخبز - وقد يكون مجازاً يراد به سائر أنواع الطعام - من الغرباء، فنراهم يقولون :

> **«ومن يد ابن الغريب لا تقربوا خبز إلهكم من جميع هذه لأن فيها فسادها. فيها عيب لا يُرضى بها عنكم».** (لاويين ٢٢/٢٥)

وإذا كان من الطبيعي أن تكون التقدمات إلى الرب مما هو ليس بمعيب، فإن افتراض وجود عيب في كل ما هو عند الغرباء أمر مبالغ فيه. وهناك فارق بين النهي عن الشراء

١- ٢/١٥٨.

من الغرباء كلية، وبين تقديم ما هو معيب للرب، سواء كانت هذه التقدمة المعيبة من الغريب أو من القريب. فالزعم بأن المقصود هنا هو عدم شراء حيوانات من غير الإسرائيليين بسبب أنها مخصية، والخصى فساد يمنع من تقديمها [1] زعم واه. فالفقرة لا تشير إلى نوعية بعينها من التقدمات وهى الحيوانات، وإنما هى تذكر «الخبز» الذى يمكن قبول تأويله على أنه إما خبز فعلى، أو كناية عن الطعام بأسره، أما تفسير الخبز بالحيوانات فهو أمر غير وارد فى العبرية، لغة النص الأصلى.

ويبدو أن الكهنة هم أصحاب المصلحة فى عنصرة بعض التشريعات سعياً وراء توطيد مكانتهم من جانب، وتحقيق أكبر المكاسب من جانب آخر. فحتى دهن المسح الذى يستخدمه الكهنة فى طقوسهم وشعائرهم محظور صناعته على غير الكهنة، فهم من نسل هارون، خيار من خيار من خيار، فهم الصفوة، والثلة المختارة بين الشعب المختار :

«وتكلمُ بنى إسرائيل قائلاً. يكون هذا لى دهناً مقدساً للمسحة فى أجيالكم. على جسد إنسانٍ لا يُسكب. وعلى مقاديره لا تصنعوا مثله. مقدس هو ويكون مقدساً عندكم. كل من ركّب مثله ومن جعل منه على أجنبى يقطع من شعبه». (خروج ٣٠/٣١ - ٣٢)

والأمر لم يقتصر على نحو ما نرى فى الفقرات السابقة على «صناعة» الدهن، بل كذلك على استخدامه، فهو من «الممنوعات» التى لا يحق وصفها إلا عن طريق الكاهن، ولا يجوز ممارستها إلا بالترخيص الربانى المحدد فى الانتماء إلى نسل هارون.

وأكثر من ذلك، إن مجرد الاقتراب من مسكن اللاويين يعتبر جريمة عقوبها القتل. فالأجنبى - أى غير المنتمى إلى سبط لاوى وفقاً لأصحاب السنن [2] - إذا اقترب من مسكن اللاويين حيث التابوت المقدس، فقد استوجب قتله.

١- السنن القويم ١/١٦٢.

٢- السنن القويم ٢/٢٣٧.

«فعند ارتحال المسكن ينزله اللاويون وعند نزول المسكن يقيمه اللاويون، والأجنبى الذى يقترب يقتل. وينزل بنو إسرائيل كل فى محلته وكل عند رايته بأجنادهم». (عدد ١/٥١ - ٥٢)

والتفرقة بين الذكر والأنثى فى الشرائع الإسرائيلية هى نوع آخر من أنواع العنصرية، وتجسد الفقرات التالية صورة تطبيقية منها :

«وكلم الرب موسى قائلاً كلم بنى إسرائيل قائلاً. إذا حبلت امرأة وولدت ذكراً تكون نجسة سبعة أيام. كما فى أيام طمث علتها تكون نجسة. وفى اليوم الثامن يختن لحم غرلته ثم تقيم ثلاثة وثلاثين يوماً فى دم تطهيرها. كل شئ مقدس لا تمس وإلى المقدس لا تجيء حتى تكمل أيام تطهيرها. وإن ولدت أنثى تكون نجسة أسبوعين كما فى طمثها. ثم تقيم ستة وستين يوماً فى دم تطهيرها. ومتى كملت أيام تطهيرها لأجل ابن أو ابنة تأتى بخروف حولى محرقة وفرخ حمامة أو يمامة ذبيحة خطية إلى باب خيمة الاجتماع إلى الكاهن فيقدمهما أمام الرب ويكفر عنها فتطهر من ينبوع دمها. هذه شريعة التى تلد ذكراً أو أنثى. وإن لم تنل يدها كفاية لشاة تأخذ يمامتين أو فرخى حمام الواحدة محرقة والآخر ذبيحة خطية فيكفر عنها الكاهن فتطهر». (لاويين ١٢/١-٨)

فالمرأة التى تلد ذكراً تكون نجسة سبعة أيام، وتقيم ثلاثة وثلاثين يوماً فى دم تطهيرها.

أما التى تلد أنثى فتكون نجسة أسبوعين، وتقيم ستة وستين يوماً فى دم تطهيرها.

فما تعليل مضاعفة النجاسة وتغليظها فى حالة ولادة الأنثى عن الذكر ؟

ذهبت بعض تفاسير العهد القديم إلي أن المرأة الوالدة للأنثى تبقى نجسة فترة أطول مما تكون عليه عند ولادة الذكر، لكن الآراء الطبية العلمية تؤكد على عدم وجود فارق كهذا في الحالتين. كما تغاضت التفاسير العبرية عن شرح الفقرة الخامسة بالذات (١). وصرحت بعض التفاسير بعدم وجود سبب مقنع لهذه التفرقة. (٢)

ومن هنا لا نجد مبرراً لقبول تلك التفرقة إلا أنها نوع من أنواع العنصرية الذكورية الخاصة، داخل العنصرية الإسرائيلية العامة.

وبناءً على ما تقدم كله، يمكننا أن نشير إلى تأصيل ظاهرة العنصرية في التاريخ الإسرائيلي (٣) والإعداد لها منذ عصر نوح، ومروراً بعصور الآباء والكهنة، وقد اتخذت لها مظاهر عديدة، منها ما هو تجاه غير الإسرائيليين، ومنها ما هو تجاه غير الكهنة من الإسرائيليين، ومنها كذلك ما هو تجاه الإناث من قبل ذكور الإسرائيليين.

بعد العرض السابق لمظاهر العنصرية والتعصب التي أوردتها لنا أسفار العهد القدم كسمة من سمات السلوك الإسرائيلي عبر التاريخ، هل يمكن لنا أن نتحدث عن شخصية عنصرية Ethnocentric Personality إسرائيلية؟

١- انظر : هرطوم، تفسير سفر اللاويين، ص ٣٨ - ٣٩، وتفسير جرينبرج لسفر اللاويين، ص ٦٦ - ٦٧، انظر كذلك :

Pentateuch with Rashi's Commentary, Translated into English, ed. Silbiermann, A., London, 1930

٢- انظر : The Pentateuch and Halftorahs, Hobrew Text, English translation by Hertz, J., London, 1938.

٣- حول العرقية الإسرائيلية، انظر : موفق محادين، دورة الدين اليهودي،، دار الكنوز الأدبية، بيروت، ١٩٩٧، ص : ١٣١ - ١٣٢.

تحدد الدراسات النفسية معالم هذه الشخصية بأنها «تجد المتنفس عن أوجه النقص فيها بالمغالاة فى الانتماء لجماعتها والانقياد لقيادتها، وإظهار العداء الشديد لأعدائها». [1]

ولقد وجدنا بالفعل مغالاة فى الانتماء الإسرائيلى لجماعة «شعب الله المختار»، بحيث كانت لهذه الجماعة شرائع وقوانين تزيد من عزلتها وإفرادها عن سائر الأمم والشعوب.

كما وجدنا فى مراحل كثيرة انقياداً - بلاوعى - لقادة هذه الجماعة، وسفرا يشوع والقضاة يدللان على هذا الانقياد.

كما أن العداء الشديد لأعداء جماعة بنى إسرائيل، بل كذلك لغير الأعداء من الشعوب الآمنة المطمئنة، واضح بلا غبش، فى وقائع التاريخ الإسرائيلى، وانعكس هذا العداء، ليس فى عمليات الاحتلال وحسب، وإنما فى حالة الانتقام الدموى الذى مارسه بنو إسرائيل ضد الآخرين.

لقد ولّدت هذه العنصرية داءً آخر أصاب الشخصية الإسرائيلية، وأعنى به ما يسمى بالتعصب الجنسى Racial Prejudice، والذى يعنى تعصب جنس ضد جنس.

ولم يقتصر هذا التعصب الجنسى على هذا المفهوم العام، بل وجدنا صوراً وليدة عنه تمثلت فى التعصب القبلى، باعتبار القبيلة رمزاً لمجموعة منجزئة عن مجموعة جنسية أعم وأشمل.

١- عبد المنعم الحفنى، الموسوعة النفسية، المرجع السابق، ص ٣٥٣.

٢- القتـــل وسـفك الـدمـاء

يلاحظ القارئ للعهد القديم أن أكثر الصفات والأفعال السلبية وقوعاً فى تاريخ الشخصية الإسرائيلية، هى تلك الأفعال والصفات التى وردت فى شأنها أوامر شديدة بعدم ارتكابها أو ممارستها، وبخاصة فيما ورد فى «أم التوراة»، فى الوصايا العشر.

فبعد الوصايا الأولى الخاصة بتوحيد الرب وإفراده بالعبادة، تطالعنا أول وصية ربانية فى الإطار الاجتماعى العملى الإسرائيلى وهى :

«لا تقتـــل». (خروج ٢٠/١٣)

ويطالعنا فى سفر اللاويين نص فريد، جاء فى إطار كلام الرب لموسى، أى فى أوامر الرب التى طلب من موسى إبلاغها لشعبه المختار :

«وإذا أمات أحد إنساناً فإنه يُقتل ... ومن قتل إنساناً يقتل.
حكم واحد لكم الغريب كالوطنى». (٢٤/١٧ - ٢٢)

النص السابق واضح وصريح. فمن قتل يقتل، سواء أكان المقتول إسرائيلياً أو غير إسرائيلى : حكم واحد، الغريب كالوطنى. فالقصاص أمر إلهى، وعدالة ربانية، ويلاحظ ورود الحكم بصورتين : من أمات ....، ومن قتل ....، وهذا يعنى اشتمال كل الوسائل والطرق التى من شأنها إزهاق الروح، والعبارات تشتمل - ضمناً - التواطؤ على القتل أو الإماتة.

هذا الحكم العدل، وهذا القصاص الرائع، الذى من شأنه أن يحمى أمن الفرد ويحافظ على روحه أولاً، وأمن المجتمع وسلامته ثانياً، غاب عن عيون وقلوب وذاكرات أفراد وملوك وحكام بنى إسرائيل خلال معظم تاريخهم، وهو إن لم يكن إهمالاً لتطبيق الشرع، فربما كان النص غير موجود فى «كتاب الرب» الذى احتفظ به بنو إسرائيل فى حلهم وترحالهم.

لكن بنى إسرائيل قد أمعنوا فى القتل وسفك الدماء، حتى صار «متعة» لهم، وأصبح القتل علامة مميزة وسمة فارقة، تتصف بها الشخصية الإسرائيلية.

وعلى نحو ما عودنا النبى إرمياء، وجدناه يكشف سوءات قومه، مهاجماً لهم، ومستنكراً لصنائعهم، ومعدداً لخطاياهم وآثامهم :

«لأن عـينيك وقلبك ليـست إلا على خطفك وعلى الدم الزكى لتسفكه». (إرمياء ٢٢/١٧)

فإسرائيل ظاهراً (عينيك) وباطناً (قلبك) - حسب وصف إرمياء - قد جعلت جل همها فى سفك الدماء. وأى دماء؟، إنها الدماء الزكية الطاهرة. فأى فظاعة بعد هذا الوصف الذى يجسد اهتمام الشخصية الإسرائيلية قلباً وقالباً فى القتل وسفك الدماء؟!

ومن المفروض أن يكون رجال الدين - فى أى دين - أكثر الناس ورعاً وتقوى، وأحرص البشر على تطبيق شرع الرب. لكن كهنة بنى إسرائيل كانوا أبعد ما يكونوا عن الشرع والدين.

«من أجل خطايا أنبيائها (صهيون) وآثام كهنتها السافكين فى وسطها دم الصديقين. تاهوا كعمى فى الشوارع وتلطخوا بالدم حتى لم يستطع أحد أن يمس ملابسهم». (مراثى ارمياء ٤/١٣ - ١٤)

والصورة السابقة تجسد لنا فظاعة الكهنة وبعدهم عن الدين والأخلاق والفضائل، فهم يسفكون الدماء، وأى دماء؟ إنها دماء الصديقين لا الفجار والأشرار، ووصل عشقهم للدماء أن تلطخوا بها، وتشربتها ملابسهم، فبات الناس يخشون الاقتراب منهم خشية النجاسة.

وأيـــن يـرتكـب ذلك كله ؟

فى «صهيون» مدينة الرب، مدينة داود المزعومة، حيث كان ينبغى أن تكون لها فى نفوسهم قداسة وطهارة.

ولم يكن ذلك ديدن الكهنة وحسب، بل هو منهج وسلوك قادة إسرائيل وملوكها وقضاتها. يقول ميخا :

«اسمعوا هذا يا رؤساء بيت يعقوب وقضاة بيت إسرائيل، الذين يكرهون الحق ويعوجون كل مستقيم. الذين يبنون صهيون بالدماء، وأورشليم بالظلم». (٣/٩ - ١٠)

وفى وصف بلعام لإسرائيل - وفقاً لوحى الرب إليه - نراه يمتدح هؤلاء القوم - أو ربما يذمهم ، و إن كان الوصف وارداً فى مدحهم ومباركهتم - يقول :

«هوذا شعب يقوم كبلؤة، ويرتفع كأسد. لا ينام حتى يأكل فريسة ويشرب دم قتلى. (عدد ٢٣/٢٤)

وفي وصف آخر يمجد فيه إسرائيل، يقول بلعام :

«ما أحسن خيامك يعقوب. مساكنك يا إسرائيل ... يأكل أمماً مضايقيه ويقضم عظامهم ويحطم سهامه. جثم كأسد ربض كلبؤة. من يقيمه ...». (عدد ٢٤/٥-٩)

إن تشبيه إسرائيل مرة بالأسد، وأخرى باللبؤة، ليس فى قوة وشجاعة المشبه به، لأن سياق اللغة يحدد وجه الشبه : أكل الفريسة، شرب الدماء، أكل المضايقين، قضم العظام، وما أظن تلك الصفات تصلح إلا لتلك الشخصية الشهيرة فى عالم السينما «دراكولا مصاص الدماء»، الذى تصنف أفلامها ضمن أفلام الرعب والخوف والهلع.

هذه هى الصورة العامة للشخصية الإسرائيلية : عوامها وملوكها ورؤساؤها، وكهنتها، وقضاتها.

وهذا هو «الموجز»، وإليكم بعض حوادث القتل «بالتفصيل» مع الاعتذار مقدماً لمشاعر كل قارئ، «فناقل وقائع القتل ليس بقاتل».

وكعادتنا ومنهجنا فى تأصيل سمات وصفات الشخصية الإسرائيلية من خلال نصوص العهد القديم، سأقوم باستقراء حسب ترتيب أسفار هذا الكتاب، بدءاً بما يزعمون أنه بداية تاريخ آبائهم، وقد أفصل بعد الوقائع، وقد أوجز البعض الآخر.

وأول ممارسات القتل الجماعي، هو تلك «المذبحة» التي قام بها أبناء يعقوب، وراح ضحيتها حمور الحوى وابنه شكيم وجميع ذكور أهل مدينتهما. (تكوين ٣٤/٢٥-٢٦)

وفى زمن موسى، كلمه الرب آمراً إياه وشعبه بالانتقام لبنى إسرائيل من المديانيين، وهنا أرسل موسى :

«ألفاً من كل سبط إلى الحرب هم وفينحاس بن ألعازر الكاهن إلى الحرب وأمتعة القدس وأبواق الهتاف فى يده. فتجندوا على مديان كما أمر الرب وقتلوا كل ذكر. وملوك مديان قتلوهم فوق قتلاهم. أوى وراقم وصور وحور ورابع. خمسة ملوك مديان. وبلعام بن بعور قتلوه بالسيف». (عدد ٣١/٦-٨)

وكان جزاء سيحون وقومه الإبادة التامة (التحريم) حتى لم يبق منهم شارد، وذلك على أيدى موسى والخارجين معه من مصر.

«فخرج سيحون للقائنا هو وجميع قومه للحرب إلى ياهص. فدفعه الرب الهنا أمامنا فضربناه وبنيه وجميع قومه. وأخذنا كل مدنه فى ذلك الوقت وحرمنا من كل مدينة الرجال والنساء والأطفال. لم نبق شارداً». (تثنية ٢/٣٢ - ٣٤)

والقتل فى النص السابق قد شمل : الرجال والنساء والأطفال، وإذا كان القتال مشروعاً - تحت أى مبرر يمكن اختلاقه - فإن قتل النساء والأطفال لا يمكن تبريره إنسانياً على الإطلاق، إلا إذا ربطنا بين هذا السلوك، ووصف بلعام لإسرائيل.

ومصير باشان وملكها «عوج» لم يكن بأفضل من مصير سيحون، ويفخر كتّاب سفر التثنية قائلين :

«فحرمناها كما فعلنا بسيحون ملك حشبون محرمين كل مدينة الرجال والنساء والأطفال». (تثنية ٣/٦)

ومن الغريب أيضاً أن تشريعات الحرب في سفر التثنية والتي ضمها الإصحاح العشرون، لها وجهة نظر أخرى متباينة فيما يتعلق بأهل المدن المفتوحة :

«حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح. فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك. وإن لم تسالمك بل عملت معك حرباً فحاصرها. وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف. وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة كل غنيمتها فتغتنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك. هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جداً التي ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا. وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيباً لا تستبق منها نسمة ما بل تحرمها تحريماً الحثيين والأموريين والكنعانيين والفرزيين والحويين واليبوسيين كما أمرك الرب إلهك لكي لا يعلموكم أن تعملوا حسب جميع أرجاسهم التي عملوا لآلهتهم فتخطئوا إلى الرب إلهكم». (تثنية ٢٠/١٠- ١٧)

فالمقهورون المهزومون صنفان :

مدن وأمم بعيدة عن بني إسرائيل، وهذه يقتل جميع ذكورها بحد السيف، ويستحيا الأطفال والنساء.

ومدن الأمم المجاورة، أصحاب الأرض، وهذه لا يستبقى منها نسمة، وهؤلاء المنكوبون هم الحثيون والأموريون والكنعانيون والفرزيون والحويون واليبوسيون.

والسبب واضح.

فالأمم البعيدة ليسوا هدفاً استراتيجياً في حد ذاتهم، فأرضهم لا تدخل ضمن الوعد الإلهي، ومن ثم، لا بأس أن يبقى الأطفال والنساء، إذ أمام الأطفال أجيال حتى يقفوا على أقدامهم ويفكروا في محاربة إسرائيل.

أما الأمم القريبة، فهم هدف استراتيجي، هم وأرضهم، والمطلوب هو إبادة كل أصحاب الأرض حتى لا يخرج ذات يوم من يطالب بحق فيها، لذا وجب قتل الأطفال، وكذلك النساء، إذ من المحتمل أن يكون من بينهن «حوامل» يخرج منهن ذات يوم من يطالب بالأرض.

إذن، تحديد أنواع وأصناف القتلى جاء هنا بموجب تشريع من إله إسرائيل. [1]

وتنفيذاً لأوامر الرب في سفر التثنية، كانت مجازر يشوع :

زحف الإسرائيليون – في أول حملات غزوهم على أرض كنعان – إلى أريحا :

«وحرموا (أي أبادوا) كل ما في المدينة من رجل وامرأة، من طفل وشيخ». (يشوع ٢١/٦)

وفي الحملة الثانية، هاجم الإسرائيليون مدينة عاي، ولا ندري سبب استثناء الرب لغنائم هذه المدينة من الإبادة، وقد استجاب الغازون لأوامر الرب، وهكذا فعلوا مع سكان عاي :

«وضربوهم حتى لم يبق منهم شارد ولا منفلت. وأما ملك عاي فأمسكوه حياً وتقدموا به إلى يشوع. وكان لما انتهى إسرائيل من قتل جميع سكان عاي في الحقل في البرية حيث لحقوهم وسقطوا جميعاً بحد السيف حتى فنوا أن جميع إسرائيل رجع إلى عاي وضربوها بحد السيف. فكان جميع الذين سقطوا في ذلك اليوم من رجال ونساء اثني عشر ألفاً جميع أهل عاي». (يشوع٨/٢٢-٢٥)

ثم كانت سلسلة هجمات وحملات يشوع على المدن الأخرى، وقد بدأها بقتل ملوك الأموريين الخمسة وتعليقهم على الخشب. (يشوع ٢٦/١٠)، ثم :

١- حول سياسة الإبادة في العهد القديم انظر :

Niditch, S., War in the Hebrew Bible, New York, Oxford, 1993, pp. 28 - 77.

«أخذ يشوع مقيدة فى ذلك اليوم وضربها بحد السيف وحرم ملكها هو وكل نفس بها. لم يبق شارداً وفعل بملك مقيدة كما فعل بملك أريحا. ثم اجتاز يشوع من مقيدة وكل إسرائيل معه إلى لبنة وحارب لبنة. فدفعها الرب هى أيضاً بيد إسرائيل مع ملكها فضربها بحد السيف وكل نفس بها. لم يبق بها شارداً وفعل بملكها كما فعل بملك أريحا. ثم اجتاز يشوع وكل إسرائيل معه من لبنة إلى لخيش ونزل عليها وحاربها. فدفع الرب لخيش بيد إسرائيل فأخذها فى اليوم الثانى وضربها بحد السيف وكل نفس بها حسب كل ما فعل بلبنة. حينئذ صعد هورام ملك جازر لإعانة لخيش وضربه يشوع مع شعبه حتى لم يبق له شارداً. ثم اجتاز يشوع وكل إسرائيل معه من لخيش إلى عجلون فنزلوا عليها وحاربوها وأخذوها فى ذلك اليوم وضربوها بحد السيف وحرم كل نفس بها فى ذلك اليوم حسب كل ما فعل بلخيش. ثم صعد يشوع وجميع إسرائيل معه من عجلون إلى حبرون وحاربوها. وأخذوها وضربوها بحد السيف مع ملكها وكل مدنها وكل نفس بها. لم يبق شارداً حسب كل ما فعل بعجلون فحرمها وكل نفس بها. ثم رجع يشوع وكل إسرائيل معه إلى دبير وحاربها. وأخذها مع ملكها وكل مدنها وضربوها بحد السيف وحرموا كل نفس بها. لم يبق شارداً. كما فعل بحبرون كذلك فعل بدبير وملكها وكما فعل بلبنة وملكها. فضرب يشوع كل أرض الجبل والجنوب والسهل والسفوح وكل ملوكها. لم يبق شارداً بل حرم كل نسمة كما أمر الرب إله إسرائيل. فضربهم يشوع من قادش برنيع إلى غزة وجميع أرض جوشن إلى جبعون. وأخذ يشوع جميع أولئك الملوك وأرضهم دفعة واحدة لأن الرب إله إسرائيل حارب عن إسرائيل. ثم رجع يشوع وجميع إسرائيل معه إلى المحلة إلى الجلجال».
(يشوع ١٠/٢٨-٤٢)

هكذا كان يشوع أميناً فى تطبيق أوامر الرب، ومن ثم حظى بدعم إله إسرائيل ومشاركته فى عمليات القتل، على نحو ما وقع مع الأموريين :

«وبينما هم (الأموريون) هاربون من أمام إسرائيل وهم فى منحدر بيت حورون رماهم الرب بحجارة عظيمة من السماء إلى عزيقة فماتوا. والذين ماتوا بحجارة البرد هم أكثر من الذين قتلهم بنو إسرائيل بالسيف». (يشوع ١٠/١١)

وفى مواجهة قوات التحالف : ملك حاصور وملك مادون وملك شمرون وملك أكشاف وملوك الكنعانيين فى الشرق والغرب والأموريين والحثيين والفرزيين واليبوسيين فى الجبل والحويين تحت حرمون فى أرض المصفاة :

«جاء يشوع وجميع رجال الحرب معه عليهم عند مياه ميروم بغتة وسقطوا عليهم. فدفعهم الرب بيد إسرائيل فضربوهم وطردوهم إلى صيدون العظيمة وإلى مسرفوت مايم وإلى بقعة مصفاة شرقاً. فضربوهم حتى لم يبق لهم شارد. ففعل يشوع بهم كما قال له الرب. عرقب خيلهم وأحرق مركباتهم بالنار ثم رجع يشوع فى ذلك الوقت وأخذ حاصور وضرب ملكها بالسيف. لأن حاصور كانت قبلاً رأس جميع تلك الممالك. وضربوا كل نفس بها بحد السيف. حرموهم. ولم تبق نسمة وأحرق حاصور بالنار. فأخذ يشوع كل مدن أولئك الملوك وجميع ملوكها وضربهم بحد السيف. حرمهم كما أمر موسى عبد الرب. غير أن المدن القائمة على تلالها لم يحرقها إسرائيل ما عدا حاصور وحدها أحرقها يشوع. وكل غنيمة تلك المدن والبهائم نهبها بنو إسرائيل لأنفسهم. وأما الرجال فضربوهم جميعا بحد السيف حتى أبادوهم. لم يبقوا نسمة. كما أمر الرب موسى عبده هكذا أمر موسى يشوع وهكذا فعل يشوع. لم يهمل شيئاً من كل ما أمر به الرب موسى». (يشوع ١١/٧ - ١٥)

والفقرات السابقة تشير إلى «الالتزام الديني» من قبل يشوع، الذي لم يهمل شيئاً مما أمره به موسى، وما أمر الرب به موسى. فياله من إخلاص وتدين !!

وواصل يشوع مجازره،

«وقرض العناقيين من الجبل من حبرون ومن دبير ومن عناب ومن جميع جبل يهوذا ومن كل جبل إسرائيل. حرمهم يشوع من مدنهم».
(يشوع ١١/٢١)

وكلمة «قرض» توحي بالاستئصال التام، وهو ما أكدته كلمة «حرمهم» فيما بعد، وكلتا الكلمتين تدل على الإبادة التامة للعناقيين.

ثم يموت يشوع، ويأتي جيل آخر من سفاكي الدماء، إنه جيل القضاة، الذين ورثوا شهوة القتل والإبادة.

وفي افتتاحية سفر القضاة، يقتل يهوذا وشمعون أخوه، عشرة آلاف من الكنعانيين والفرزيين في بازق (٤/١)، ثم يضرب يهوذا من في أورشليم بحد السيف (٨/١)، كما ضربوا الكنعانيين سكان صفاة وأبادوا من في المدينة إبادة تامة (١٧/١). أما بيت يوسف، فقد صعدوا إلى بيت إيل «والرب معهم»، وأبادوا من في المدينة بحد السيف. (٢٥/١)

وضرب إهود ومن معه من بني إسرائيل من موآب **«نحو عشرة آلاف رجل كل نشيط وكل ذي بأس ولم ينجُ أحد»**. (٢٩/٣)

وشمجر بن عناة يقتل من الفلسطينيين **«ستمائة رجل بمنساس البقر»** (٣١/٣)، والمنساس هو المهماز. [1]

ولم يبق ولا واحد من جيش سيسرا الكنعاني، إذ سقط كل جيشه بحد سيف الإسرائيليين. (١٦/٤)

١- عصا في رأسها حديدة تهمز بها الدابة.

أما القاضى الإسرائيلى جدعون، فقد قتل من المديانيين مائة وعشرين ألف مقاتل (٨/ ١٠)، كما قام بقتل رجال «سكوت» (١٧/٨)، وقتل زبح وصلمناع قائدى جيوش المديانيين. (٢١/٨)

والقاضى الإسرائيلى أبيمالك، أحرق صرح بيت إيل وبه ألف رجل وامرأة من أهل شكيم (٤٩/٩)، وذلك بعد أن قتل كل شعب شكيم وهدم المدينة وزرعها ملحاً (٤٥/٩)، وبعد أن سقط قتلى كثيرون على يديه من أهل المدينة (٣٩/٩-٤٠)

ويبدو أن تعطش أبيمالك للدماء قد جعله يمارس هوايته - ليرضى تلك النزعة الإجرامية فى شخصيته - مع أقاربه، إذ **«قتل اخوته بنى يربعل سبعين رجلاً على حجر واحد»**. (٥/٩)

وتقابل «الاخوة الأعداء» الجلعاديون والإفرايميون، وسقط من أفرايم اثنان وأربعون قتيلاً. (٦/١٢)

أما شمشون الجبار، فقد قتل وحده ثلاثين رجلاً من أشقلون (١٩/١٤)، وأمسك بيده لحى حمار وقتل به ألف فلسطينى (١٥ - ١٥ - ١٦)، وأخيراً كانت عمليته الانتحارية الكبرى، عندما استجمع قواه، ودعا ربه، ثم هدم البيت على من فيه، فمات، ومات معه ثلاثة آلاف رجل وامرأة من الفلسطينيين انتقاماً من هذا الشعب. (٢٥/١٦-٣١)

وبنو دان، قتلوا أهل مدينة لايش، وكانوا شعباً مستريحاً مطمئناً - كما تذكر النصوص - وأبادوهم بالسيف، وأحرقوا المدينة بالنار، دون سابق عداوة، ودون أى سبب يستوجب ذلك، بل إن النصوص تشير إلى أن أهل لايش **«لم يكن لهم أمر مع إنسان»** أى كانوا «فى حالهم»، ثم عمد بنو دان إلى تغيير معالم الأرض، وغيروا اسم المدينة من «لاش» إلى «دان» فى محاولة استيطانية «لعبرنة وأسرلة» الأراضى المحتلة، بعد أن تم الخلاص من أهلها بإبادتهم. (٢٧/١٨ - ٢٩)

وعاد بنو إسرائيل لممارسة «العشق الدموى» فيما بينهم، فاقتتل بنو بنيامين مع إسرائيل، وسقط فى الجولة الأولى اثنان وعشرون ألف رجل من إسرائيل.

ثم قتل من إسرائيل فى الجولة الثانية ثمانية عشر ألف رجل.

وشهدت الجولة الثالثة انكسار بنيامين، وقتل خمسة وعشرين ألفاً على أيدى إخوانهم من إسرائيل، وتمت إبادة «جبعة» ومن فيها بحد السيف.

ثم قتل الإسرائيليون ثمانية عشر ألفاً آخرين من بنى بنيامين، وألفين أمسكوا بهم فى الطريق وقتلوهم. (قضاة ١٤/٢٠ - ٤٥)

وواصل بنو إسرائيل مجازرهم فى إخوانهم، وتعطشهم للدماء، وقتلوا سكان يابيش جلعاد بحد السيف مع النساء والأطفال. (١٠/٢١)

وما كان الرب - إله إسرائيل - ليدع أى فرصة يمارس هو فيها أيضاً عشقه للدماء، وحبه للقتل، إذ نراه يقتل «خمسين ألف رجل وسبعين رجلاً» من أهل بيتشمش الإسرائيليين، لمجرد أنهم نظروا .. نعم نظروا فقط، إلى تابوت العهد (صموئيل أول ١٩/٦)..

وينتهى عصر القضاة، «سفاكى الدماء»، ليبدأ عصر الملوك «عاشقى الدماء»، ويستهل الملك شاول، النشاط الدموى لعصر الملوك، وذلك بتجربة دموية جديدة : ضرب الكهنة، وإبادة مدينتهم بمن فيها وما فيها :

> **«فقال الملك (شاول) لدواغ دُرْ أنت وقَعْ بالكهنة. فدار دواغ الأدومى ووقع هو بالكهنة وقتل فى ذلك اليوم خمسة وثمانين رجلاً لابسى أفود كتان (أى كهنة). وضرب نوب مدينة الكهنة بحد السيف. الرجال والنساء والأطفال والرضعان والثيران والحمير والغنم بحد السيف». (صموئيل أول ١٨/٢٢-١٩)**

وسفر صموئيل يحدثنا بشكل عام عن حروب شاول وما أوقعه من خسائر فى أرواح أعدائه الفلسطينيين، وكانت أبرز مجازره مع عماليق، التى ضربها وأباد جميع شعبها بحد السيف. (١٥/٨)

أما عصر الملك داود، فقد كان عصراً دموياً بحق، وهذا ما تشهد به أسفار العهد القديم. إن داود نفسه كان شخصيته دموية، ووصفه معاصروه بأنه «رجل دماء» (صموئيل الثانى ١٦/٨)

وتشهد بدايات عصره، صراعاً من قبيل «المزاح» بين أسباط بنى إسرائيل، وقام الغلمان يتقاتلون بلا سبب.

«وأمسك كل وحدا برأس صاحبه وضرب سيفه فى جنب صاحبه، وسقطوا جميعاً». (صموئيل الثانى ١٦/٢)

ويتصارع أتباع داود مع أبنير ورجاله، ويقتل عشرون، ثم ثلثمائه وستون (صموئيل الثانى ٢/٢٤- ٣٢)، ناهيك عن عمليات قتل فردية عديدة، عكست صورة الصراع بين داود من جانب، وورثة بيت شاول من جانب آخر. (انظر على سبيل المثال : صموئيل الثانى ٣/٢٧؛ ٤/٦، ١٢؛ وغيرها).

وفى إطار تثبيت دعائم مملكة داود، والذود عنها، قتل الملك داود عشرات، بل مئات الآلاف من أعدائه.

فقد ضرب من أرام دمشق اثنين وعشرين ألف رجل (صموئيل الثانى ٨/٥)

وضرب منهم كذلك ثمانية عشر ألفاً فى وادى الملح. (١٣/٨)

وقتل منهم أيضاً فى عيلام أربعين ألف فارس. (١٠/١٨)

وفعل داود بأهل ربة بنى عمون ما لم يفعله الإرهابيون على مدى تاريخ إرهاب الإنسان للإنسان، من لدن آدم وحتى عصرنا هذا :

«فجمع داود كل الشعب وذهب إلى ربة وحاربها وأخذها وأخذ تاج ملكهم عن رأسه ووزنه وزنة من الذهب مع حجر كريم وكان على رأس داود. وأخرج غنيمة المدينة كثيرة جداً. وأخرج الشعب الذى فيها ووضعهم تحت مناشير ونوارج حديد وفؤوس حديد وأمرّهم فى أتون الآجر وهكذا صنع بجميع مدن بنى عمون ثم رجع داود وجميع الشعب إلى أورشليم». (صمونيل الثانى ١٢/٢٥-٣١)

وإنى لعلى يقين تام، من أن مثل هذه الفقرات التى قدمت لنا صنوف القتل والتعذيب، المناشير والنوارج والفؤوس، والأفراد، كانت مصدر إلهام لكثير من مجرمى وإرهابى العصر الحديث.

وتصديقاً لوصف بلعام فى إسرائيل، بأنهم كأسد، أو كلبؤة، لا ينام حتى يأكل فريسة ويشرب دم قتلى، اجتمع أسود ولبؤات إسرائيل وعبيد داود، ليتخموا بطونهم من جثث الفرائس، وليملأوا أمعاءهم من دم القتلى، **«وكان صباح. وكان مساء يوم قتال واحد»** :

«وخرج الشعب إلى الحقل للقاء إسرائيل. وكان القتال فى وعر أفرايم. فانكسر هناك شعب إسرائيل أمام عبيد داود وكانت مقتلة عظيمة فى ذلك اليوم. قُتل عشرون ألفاً. وكان القتال هناك ينتشر على وجه كل الأرض وزاد الذين أكلهم الوعر من الشعب على الذين أكلهم السيف فى ذلك اليوم». (صمونيل الثانى ١٨/٦- ٨)

وفى إطار الفخر بالقتل، جاء فى وصف أبطال داود :

«هذه أسماء الأبطال الذين لداود. يوشيب بشبتُ التحكمونى رئيس الثلاثة. هو هز رمحه على ثمان مئة قتلهم دفعة واحدة». (صمونيل الثانى ٢٣/٨)

«وابيشاى أخو يوآب ابن صروية هو رئيس ثلاثة. هذا هز رمحه على ثلثمائة قتلهم فكان له اسم بين الثلاثة». (صموئيل الثانى٢٣/١٨)

والفخر هنا ليس بالشجاعة كقيمة فى حد ذاتها، وإنما الفخر بعدد القتلى الذين صرعهم هؤلاء الأبطال الأشاوس.

وقبل أن يودع داود حياة الدماء، يذكر ابنه سليمان - وريث عرشه - بما فعله بعض بنى إسرائيل من قتل وسفك، ويوصيه بالانتقام :

«ولما فرغت أيام وفاة داود أوصى سليمان ابنه قائلاً ... وأنت أيضاً تعلم ما فعل بى يوآب ابن صُروية ما فعل لرئيسى جيوش إسرائيل ابنير بن نير وعماسا بن يثر اذ قتلهما وسفك دم الحرب فى الصلح وجعل دم الحرب فى منطقته التى على حقويه وفى نعليه اللتين برجليه فافعل حسب حكمتك ولا تدع شيبته تنحدر بسلام إلى الهاوية». (ملوك أول ٢/١-٦)

ولقد ثبت الملك سليمان دعائم ملكه بالقتل، فبدأ بتصفيه معارضيه :

«اليوم يقتل أدونيا. فأرسل الملك سليمان بيدبناياهو بن يهويا داع فبطش به فمات». (ملوك أول ٢/٢٤)

وتم «تحديد إقامة» شمعى بأمر من الملك سليمان، ولما تجرأ وخرج من داره لضرورة، تم قتله. (ملوك أول ٢/٣٦- ٤٦)

وقد استمر جنود سليمان بقيادة يوآب فى قتل الأدوميين ستة أشهر كاملة حتى أفنوا كل ذكر فى أدوم. (ملوك أول ١١/١٦)

ولقد شهدت فترة انقسام المملكة السليمانية إلى مملكتى إسرائيل فى السامرة ويهوذا فى أورشليم صنوفاً من ألوان القتل والإبادة.

فها هو الملك بعشا، ملك إسرائيل يضرب كل بيت بربعام :

«ولم يبق نسمة ليربعام حتى أفناهم». (ملوك أول ١٥/٢٨)

كما عرفت هذه الفترة الاغتيالات السياسية بصورة موسعة، فنذكر منها على سبيل المثال : اغتيال زمرى رئيس مركبات الملك أيلة بن بعشا للملك، وتملكه عوضاً عنه، ثم قتله لكل بيت بعشا :

«لم يبق له بائلاً بحائط مع أوليائه وأصحابه، فأفنى زمرى كل بيت بعشا». (ملوك أول ١٦/٨- ١٢)

و«اليشع» النبى، يحرض «ياهو بن يهوشافاط بن نمشى» ضد بيت «أخاب» سيده، ويمسحه ملكا على شعب الرب إسرائيل، بل ويأمره بضرب بيت «أخاب» والانتقام لدماء جميع عبيد الرب من يد ايزابل :

«فيبيد كل بيت أخاب واستأصل لأخاب كل بائل بحائط ومحجوز ومطلق فى إسرائيل» (ملوك ثان ٩/٨)

ويأمر «ياهو» شيوخ يزرعيل بقتل بنى سيدهم :

«فلما وصلت الرسالة إليهم أخذوا بنى الملك وقتلوا سبعين رجلاً ووضعوا رؤوسهم فى سلال وأرسلوها إليه فى يزرعيل». (ملوك ثان ١٠/٧)

وأكثر من ذلك :

«قتل ياهو كل الذين بقوا لبيت أخاب فى يزرعيل وكل عظمائه ومعارفه وكهنته حتى لم يبق له شارداً ... صادف ياهو إخوة أخزيا ملك يهوذا .. فأمسكوهم أحياء وقتلوهم عند بئر بيت عقد اثنين وأربعين رجلاً ولم يبق منهم أحداً ... وجاء (ياهو) إلى السامرة وقتل جميع الذين بقوا لأخاب فى السامرة وحتى أفناه حسب كلام الرب الذى كلم به إيليا». (ملوك ثان ١٠/١١- ١٧)

وهكذا ، نفذ «ياهو» أوامر «يهوه» بواسطة النبى إيليا، وأفنى وقتل من تم تسجيلهم فى النصوص السابقة.

والقتل قد تنافست فيه النساء الإسرائيليات أيضاً :

«فلما رأت عثليا أم أخزيا أن ابنها قد مات، قامت فأبادت جميع النسل الملكى». (ملوك ثان ١/١١)

وعندما تملك أمصيا بن يوآش على يهوذا، أراد أن يثبت المملكة بيده، فقتل عبيده الذين قتلوا الملك أباه. (ملوك ثان ٥/١٤)

وهكذا نجد الانتقام يتمكن من قلوب ملوك يهوذا، والهدف سياسى بحت. صراع الملوك على الكراسى، وأصبح القتل مباحاً لكل فرد، وفى أى زمان، وفى كل مكان.

والإصحاح الخامس عشر من سفر الملوك الثانى، حافل بالعديد من الانقلابات السياسية التى صاحبها القتل والتخلص من الخصوم، بل وصل الأمر إلى **«شق بطون الحوامل»** انتقاماً وتنكيلاً. (ملوك ثان ١٦/١٥).

أما منسى، فحدث عن مجازره ولا حرج :

«وسفك أيضاً منسى دماً بريئاً كثيراً جداً حتى ملأ أورشليم من الجانب إلى الجانب...». (ملوك ثان ١٦/٢١)

«... لأجل خطايا منسى حسب كل ما عمل. وكذلك لأجل الدم البرئ الذى سفكه لأنه ملأ أورشليم دماً بريئاً ولم يشأ الرب أن يغفر». (ملوك ثان ٣/٢٤-٤)

وتمضى بقية أسفار العهد القديم مسجلة لنا جرائم القتل والإرهاب والتمثيل بالقتلى، التى قام بها الإسرائيليون مع أعدائهم، وفيما بينهم، كما تصور لنا أسفار الأنبياء : كيف ولغ الإسرائيليون فى الدماء [1]، ودماء الأبرياء الأتقياء، والأغيار الأعداء، كلهم سواء.

هذا كله يقدم لنا بعداً جديداً من أبعاد الشخصية الإسرائيلية وسمة من سماتها، كما جاءت فى النصوص المقدسة، فى العهد القديم.

١- انظر : مارتن لوثر، نفاق اليهود، ترجمة عجاج نويهض، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٤، ص ٩٤؛ وانظر كذلك كتابنا : فلسفة الحرب فى الفكر الدينى الإسرائيلى، مركز الدراسات الشرقية، جامعة القاهرة، ٢٠٠١، ص ٧٧ وما بعدها.

٣- الإفساد فى الأرض

الإفساد فى الأرض ظاهرة تعكس مناقضة القانون الإلهى، إذ كان خلق الله للإنسان بهدف تعمير هذا الكون، لكن النفس البشرية بما جبلت عليه من دوافع الخير والشر، قد تبدر منها أفعال ذات نتائج وعواقب إثمها للكون وللبشرية أكبر من نفعها.

وإذا اتخذ الإفساد فى الأرض مكانة بارزة فى سلوك فرد أو جماعة، أصبح ظاهرة مرضية بحق، لأن الأصل هو الإعمار والإفلاح، لا الإفساد والتخريب.

وهناك أنشطة بشرية ترتبط ببعض مظاهر الإفساد كالحروب - مثلاً - ولكن مع هذا، فإن قوانين الفطرة السوية، تمنع صاحبها من تخريب أو إفساد أو إهلاك أو تدمير أو إبادة ما لا ضرر منه، بل ما يمكن أن يستفاد منه للذات وللآخر.

لذلك رأينا فى شـرائع الحرب فى اليهودية ما ينهى عن إفساد ما يرتجى منه نفع أو فائدة.

> **«إذا حاصرت مدينة أياماً كثيرة محارباً إياها لكى تأخذها فلا تتلف شجرها بوضع فاس عليه. إنك منه تأكل. فلا تقطعه لأنه هل شجرة الحقل إنسان حتى يذهب قدامك فى الحصار. وأما الشجر الذى تعرف أنه ليس شجراً يؤكل منه فإياه تتلف وتقطع وتبنى حصناً على المدينة التى تعمل معك حرباً حتى تسقط».** (تثنية ١٩/٢٠ - ٢٠)

وبعيداً عن الحرب، فإن خرق نواميس الرب من شأنه أن يؤدى إلى إفساد الكون. فجميع السلوك - غير السوى - الذى انتهينا إلى تحديده بحيث أصبح سمة من سمات الشخصية الإسرائيلية، هو بمثابة إفساد فى الأرض، وإفساد فى الكون.

فالقتل، والزنا، والرشوة، والسرقة، والكذب، والخيانة، والسلب والنهب، كلها أفعال تنتهى -بشكل أو بآخر - إلى تشويه لتلك الصورة النقية المبتغاه من خلق الكون بأسره.

ولكننا فى هذا المقام سنركز بعض الشئ على بعض مظاهر ما يمكن أن نسميه بالإفساد أو التدمير المباشر - مع سبق الإصرار والترصد - لما فى الكون أو ما على الأرض من مظاهر للحياة.

وليس من المعقول أن نسوق فى هذا المقام جميع سلوكيات الشخصية الإسرائيلية التى تمخض عنها إفساد أو تخريب، فأسفار العهد القديم مملوءة بما فعلوه مع البشر والكائنات، بل ومع الجماد والأحجار والأسوار، لكننا نسوق هنا نماذج صارخة، تشهد على تمكن غريزة الإفساد من النفس، وتعلن للجميع أننا أمام شخصية - وفق مفاهيم علم النفس - غير سوية.

ففى صراع بنى إسرائيل مع مديان، كان هذا المشهد الدرامى :

«وسبى بنو إسرائيل نساء مديان وأطفالهم ونهبوا جميع بهائمهم وجميع مواشيهم وكل أملاكهم. وأحرقوا جميع مدنهم بمساكنهم وجميع حصونهم بالنار. وأخذوا كل الغنيمة وكل النهب من الناس والبهائم وأتوا إلى موسى وألعازار الكاهن وإلى جماعة بنى إسرائيل بالسبى والنهب والغنيمة إلى المحلة إلى عربات موآب التى على أردن أريحا». (عدد ٩/٣١ - ١١)

والشاهد فى الفقرات السابقة ليس السبى ولا النهب، فتلك نتائج طبيعية للحروب فى ذلك العصر، وإنما الشاهد فى حرق المدن والمساكن والحصون بالنار. فهذه المحروقات مما يمكن أن يستفاد به بعد الحرب، وحرقها لا يقدم لإسرائيل فائدة مباشرة، إلا إذا اعتبرنا هذا السلوك - وهو كثيراً ما يتكرر فى معاركهم - سياسة مقصودة، تعمد إلى إخفاء معالم الأرض المحتلة، لقطع أية صلة بينها وبين سكانها الأصليين.

هذه السياسة تكررت كثيراً، وبخاصة فى عهد يشوع والقضاة :

فقد أمر الرب يشوع بحرق وإبادة كل ما فى أريحا :

«وحرموا كل ما فى المدينة من رجل وامرأة، من طفل وشيخ، حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف». (يشوع ٦/٢١)

فلو كانت هناك مبررات لقتل البشر، بهدف التخلص من العدو، فلم يتم إبادة البقر والغنم والحمير ؟!

هل يخشى الإسرائيليون من هذه الحيوانات العجماء، أن تنضم إلى أعدائهم وتقاتل فى صفوفهم ؟

وبعد قتل أهل مدينة عاى، تم حرق المدينة ذاتها بالنار، تنفيذاً للأمر الإلهى الصادر قبل الحرب. (يشوع ٨/٨، ١٩)

كما أحرق يشوع مدينة حاصور بالنار، ليبيد كل ما بها من مظاهر الحياة، بعد أن أباد كل نفس فيها. (يشوع ١٠/١٠- ١٥)

أما شمشون الإسرائيلى، فقد ابتكر وسيلة قذرة لتدمير زراعات الفلسطينيين، هذه تفاصيلها :

«وذهب شمشون وأمسك بثلثمائة ابن آوى وأخذ مشاعل وجعل ذنباً إلى ذنب، ووضع مشعلاً بين كل ذنبين فى الوسط، ثم أضرم المشاعل ناراً وأطلقها بين زروع الفلسطينيين، فأحرق الأكداس والزرع وكروم الزيتون». (قضاة ١٥/ ٤- ٥)

وشهد الصراع السياسى بين داود وخصومه عمليات إفساد وتدمير، فقد :

«ضرب نوب مدينة الكهنة بحد السيف الرجال والنساء والأطفال والرضعان والثيران والحمير والغنم بحد السيف». (صموئيل أول٢٢/١٩)

هكذا أمر شاول قادته. لقد قتل خمسة وثمانية كاهناً من كهنة الرب، ولم يكتف بذلك، فأباد من بالمدينة، ولم تسلم من سيفه الثيران والحمير والغنم، الأمر الذى لا يمكن أن يوصف إلا بحب التدمير والتخريب.

وعلى نفس السلوك الإفسادى، سار أبشالوم بن داود، فقد كان له مع يوآب قائد جيش أبيه جولة تخريبية على النحو التالى :

> **«فقال (أبشالوم) لعبيده انظروا. حقلة يوآب بجانبى وله هناك شعير. اذهبوا وأحرقوه بالنار، فأحرق عبيد أبشالوم الحقلة بالنار».**
> (صموئيل الثانى ١٤/ ٣٠)

فأى إفساد فى الأرض بعد إهلاك الحرث والنسل، على النحو الذى تقصه علينا النصوص العبرانية المقدسة ؟!

وهذا الإفساد الإسرائيلى يكمن وراءه توجيه ربانى، وأوامر إلهية. وها هى تعليماته فى التعامل مع العدو الموآبى :

> **«وذلك يسير فى عينى الرب فيدفع موآب إلى أيديكم. فتضربون كل مدينة محصنة وكل مدينة مختارة وتقطعون كل شجرة طيبة وتطمون جميع عيون الماء وتفسدون كل حقلة جيدة بالحجارة».**
> (ملوك ثان ١٨/٣ - ١٩)

وقد قام الإسرائيليون - التزاماً بأوامر الرب - بهدم مدن موآب، وكان كل إسرائيلى يلقى حجره فى كل حقل جيدة حتى ملأوها، وطموا جميع عيون الماء وقطعوا كل شجرة طيبة. (ملوك ثان ٢٥/٣)

والقضية هنا ليست الالتزام الإسرائيلى بالأوامر الربانية، فقد كانوا أبعد الناس عن الاستجابة للرب وإطاعة أوامره، ولكنها استجابة فورية تعكس استعداداً نفسياً لعمل كل ما من شأنه التدمير والإفساد.

وقد رأينا كيف كشف النبى إرمياء كثيراً من جوانب الإفساد الإسرائيلى من خطف وسفك للدماء واغتصاب وظلم. (إرمياء ٢٢/١٧- ١٨)

ورأينا - كذلك - النبى ميخا، وهو يصور لنا مظاهر الإفساد الإسرائيلى من كراهة للحق، وتعويج المستقيم، وبناء صهيون بالدماء، وأورشليم بالظلم. (ميخا ٣/٩ - ١٠)

ولمزيد من مظاهر التخريب والتدمير والإفساد على وجه الأرض، يرجع كل راغب إلى أسفار العهد القديم، ففيها ما يغنى كل توّاق للمزيد.

الفصل الخامس

الشخصية الإسرائيلية
في علاقاتها المالية



الشخصيـة الإسـرائيليـة فى علاقاتها الماليـة

١- عشـق المـــال

إذا كان العالم المعاصر قد رسخ فى أذهانه عشق الإسرائيلى للمال، فذلك أمر يسهل تأصيله والوقوف على جذوره فى مكونات الشخصية الإسرائيلية التى قدمتها لنا أسفار العهد القديم.

فالأمر الإلهى الوارد فى سفر التثنية ٢٣/٩- ٢٠ بشأن الحث على الإقراض بالربا لغير اليهود من بنى البشر، وجعل هذا السلوك من موجبات بركة الرب : **«ولكى يباركك الرب إلهك فى كل ما تمتد إليه يدك فى الأرض التى أنت داخل إليها لتمتلكها»**، هذا الأمر، يعكس مكانة «المال» واستحوازه على الجوارح والسلوك فى الشخصية الإسرائيلية. فهو أمر إلهى، ومن موجبات البركة، ومرتبط كذلك «بالأرض» ذلك اللفظ السرى فى التراث الإسرائيلى. فأى تحبيب وترغيب لحب المال أكثر من ذلك ؟!

وفى حملة إشعياء الشعواء على قومه، والتى تستحق فى ذاتها دراسة مستقلة لرسم أبعاد الشخصية الإسرائيلية فى زمن إشعياء، نجده - فيما يصف من أخلاقيات شعبه - يقدم لنا مجموعة من السلوك الإسرائيلى، الذى يرتبط فى كل مناحيه بحب المالى وعشقه :

«كيف صارت القرية الأمينة زانية. ملآنة حقاً. كان العدل يبيت فيها، وأما الآن فالقاتلون. صارت فضتك زغلاً، وخمرك مغشوشة

بها. رؤساؤك متمردون ولُفَفَاءُ اللصوص. كل واحد منهم يحب الرشوة ويتبع الخطايا. لا يقضون لليتيم، ودعوى الأرملة لا تصل إليهم». (إشعياء ١/٢١ - ٢٣)

هذه الرذائل كلها مبعثها عشق المال. فهو الذى يحول العدل ظلماً، وهو الذى يدفع إلى «الغش» وإلى تعاطى «الرشوة» وإدمانها، وهو الذى يكمن خلف جور القضاء وضياع الحقوق.

كما أدرك النبى إرميا هذا العشق، و«الولع» الإسرائيلى بحب المال، والذى استشرى بين قومه، ولم يترك صغيراً أو كبيراً إلا وتمكن منه :

«لأنهم من صغيرهم إلى كبيرهم، كل واحد مولع بالربح».
(إرميا ٦/١٣)

فالربح فى حد ذاته ليس مذموماً، ولكن «الولع» به و«العشق» له، يؤثر على سائر سلوك الفرد وتصرفاته.

وقد أكد النبى إرميا على هذه الصفة مرة أخرى، وبنفس الألفاظ، فى موضع آخر من سفره حيث قال :

«لأنهم من الصغير إلى الكبير، كل واحد مولع بالربح».
(إرميا٨/ ١٠)

وما أظن أن مثل هذا التكرار، بنفس الألفاظ، غير ذى دلالة. فهو يعكس «الولع» الإسرائيلى بالمال من جانب، كما يعكس «استشراء» هذه الظاهرة بين صغارهم وكبارهم من جانب آخر.

وهكذا وجدنا النبى ميخا يعدد رذائل قومه من سفك للدماء وظلم ورشوة وعرافة، وكلها مصادر «دخل» للشعب : قادة ورؤساء وكهنة وأنبياء. ولو لم تكن هذه السلوكيات مصدر إدرار ربح لهولاء ما أتوها. إن عبارات ميخا (٣/٩ - ١١) لشهادة

نبوية جديدة على عشق الشخصية الإسرائيلية للمال، وسيطرته على مكوناتها ومكنوناتها.

وقد ركز النبى إرمياء فى مواضع عديدة من سفره على جرائم شعبه ذات العلاقة بالمال مثل : السرقة (٩/٧) كما أشار إشعياء أيضاً إلى الغش (١٥/٢٨) الذى يعد كذلك أحد وسائل جمع المال من غير طرقه المشروعة.

تلك إشارات سريعة لمعْلَم من معالم الشخصية الإسرائيلية، رسمته لنا أسفار العهد القديم، وفيها المزيد للمستزيد.

٢- الرشـــوة

من الأمراض والآفات التى تصيب المجتمعات فى مقتل : الرشوة، فبها تضيع الحقوق، وتختل موازين القسط، وتنتهك الحرمات، وتستباح الأعراض، ولذلك جاءت نصوص العهد القديم ناهية عن أخذ الرشوة، مبينة لما تسببه من نتائج وخيمة على الأفراد.

هكذا يبين لنا سفر الخروج، إذ جاء فيه ضمن مجموعة الشرائع والأحكام التى من شأنها إقامة مجتمع سليم صحيح من الأمراض الاجتماعية الفتاكة :

«ولا تأخذ رشوة لأن الرشوة تعمى المبصرين، وتعوج كلام الأبرار».
(٨/٢٣)

فالنهى هنا واضح وصريح، والسبب كذلك بيّن جلىّ. فالرشوة تعمى المبصرين، إذ أنهم يرون الحق وينكرونه، وتعوج كلام الأبرار، إذ ينطقون خلاف ما يعرفون. وإذا أنكر الناس الحق، وشهدوا بالزور، فقل على المجتمع السلام. أى خير يرتجى من قوم ضاع الحق بينهم، أغمضوا أعينهم ولوّوا ألسنتهم.

وقد أوضح داود فى أحد المزامير المنسوبة إليه صفات الساكنين فى جبل قدس الرب، والسالكين بالكمال، والعاملين بالحق، والمتكلمين بالصدق فى قلوبهم، هؤلاء الأتقياء البررة، «لا يأخذون رشوة على البرئ» (مزمور ١٥/٥). ومعنى ذلك أن من يأخذ رشوة ليتهم بريئاً بما لم يفعل، فقد خرج من عداد هؤلاء المذكورين، ومن خرج من عداد هؤلاء لا يسكن فى جبل قدس الرب، فهو محروم من القرب منه، ومن رحمته ورضوانه.

وفى مزمور آخر منسوب لداود، يتوسل داود إلى ربه راجياً عفوه والقرب منه، وطالباً منه المكانة العالية الرفيعة مع الصالحين المقسطين فيقول :

«لا تجمع مع الخطاة نفسى، ولا مع رجال الدماء حياتى. الذين فى أيديهم رذيلة ويمينهم ملآنة رشوة». (مزمور ٢٦/٩ - ١٠)

فكأن داود يرجو من ربه ألا يجمعه وهؤلاء الخطاة ورجال الدماء، الذين يرتكبون الرذائل، وبصفة خاصة رذيلة الرشوة. كان من الممكن الاكتفاء بذكر الرذائل فهى شاملة لكل الخطايا، لكن داود ذكر الخاص بعد العام : الرشوة بعد الرذيلة، إمعاناً فى كراهتها والتحذير منها.

ويبدو من سياق مزامير داود وتأكيدها على بشاعة الرشوة ورذالتها أنها كانت من الظواهر الاجتماعية السائدة فى عصره، ويؤكد لنا ذلك ما ترويه نصوص سفر النبى صموئيل، الذى مسح داودا ملكاً على إسرائيل، إذ لم يسلم من هذا الداء العضال، داء الرشوة، ابنا صموئيل - النبى - وكانا قاضيين :

«وكان لما شاخ صموئيل أنه جعل بنيه قضاة إسرائيل. وكان اسم ابنه البكر يوئيل، واسم ثانيه أبيا، كانا قاضيين فى بئر سبع. ولم يسلك ابناه فى طريقه، بل مالا وراء المكسب، وأخذا رشوة، وعوّجا القضاء». (صموئيل أول ١/٨- ٣)

ولدا نبى، وقاضيان، يميلان - وفى هذا اللفظ دلالة واضحة على الانحراف - وراء المكسب، وقد تمثل هذا الانحراف فى تعاطيهما الرشوة، ونتج عن ذلك اعوجاج القضاء.

ولنا أن نتوقع بعد ذلك ما يمكن توقعه من فساد وانحراف اجتماعي، عندما يعوج القضاء، وعلى أيدي من ؟! ، على أيدي ابني نبي بني إسرائيل.

ويشن النبي إشعياء حملة ضارية ضد المفسدين في قومه، فيتهدد المخطئين والمنحرفين مستهلاً تهديده ووعيده بالويل،ومتضمناً هؤلاء المهددين المتوعدين، الذين يأخذون الرشوة، ويقلبون المعايير والموازين، فيصبح الحق وقد ضاع من أصحابه، واستقر في أيدي الغاصبين.

«ويل للأبطال على شرب الخمر، ولذوي القدرة على مزج المسكر، الذين يبررون الشرير من أجل الرشوة، وأما حق الصديقين فينزعونه منهم». (إشعياء ٥/٢٢ - ٢)

ويرى بعض المفسرين [1] أن المقصود بهؤلاء «الأبطال» القضاة الفاسقون الذين يوصفون بالأبطال تهكماً، ويبدو أن رشوة القضاة كانت قد استفحلت في المجتمع الإسرائيلي، فبعد أن رأينا ابني صموئيل النبي، يعود لنا إشعياء بعد زمن ليهدد هؤلاء القضاة الذين يمارسون هذه الرذيلة.

والنبي عاموس، يخاطب بيت إسرائيل معدداً لهم انحرافاتهم وخطاياهم التي أدركها بنفسه قائلاً :

«لأني علمت أن ذنوبكم كثيرة، وخطاياكم وافرة أيها المضايقون البار، الآخذون الرشوة، الصادون البائسين في الباب». (عاموس٥/١٢)

والفقرات السابقة لهذا الشاهد تصف خطايا الأغنياء وعقوبتهم، فلقد سلبوا المسكين خبزه، وسحقوا البائسين «ولم يتعرض الفقراء وحدهم للظلم والقهر والنهب، بل عُنّي

١- و. فتش، «تفسير سفر إشعياء» في : تفسير الكتاب المقدس، جـ٤/ ٣٨.

الأبرار ويغى عليهم. فأية فرصة تتاح للعدالة، فيما الرشاوى يدفعها من طالت أياديهم، والقضاة الفاسدون يتأثرون بها أيما تأثر ؟!». [1]

إن طريق عاموس هو طريق إشعياء وإرمياء وغيرهما من الأنبياء، إذ أدرك أن من مواطن الخلل الخطيرة فى المجتمع، والتى ينبغى أن تنال حظها من التقويم والإصلاح، رشوة القضاء. فالعدل أساس الملك، وإذا اختل العدل، انهار الملك. إنه بعد نظر الأنبياء، لذلك تشددوا وهددوا وتوعدوا أولئك المرتشين، والقضاة الفاسدين، وهم يعلمون جيداً، أن صلاح المجتمع من صلاحهم، وفساده من فسادهم.

ويواصل النبى ميخا محاربة فساد القضاء فى إسرائيل، فيعدد لنا مفاسد قضاة بنى إسرائيل ورؤسائهم فيخاطبهم قائلاً :

«اسمعوا هذا يا رؤساء بيت يعقوب وقضاة بيت إسرائيل : الذين يكرهون الحق، ويعوجون كل مستقيم. الذين يبنون صهيون بالدماء وأورشليم بالظلم. ورؤساؤها يقضون بالرشوة، وكهنتها يعلمون بالأجرة، وأنبياؤها يعرفون بالفضة». (ميخا ٣/٩ - ١١)

إن خطاب ميخا فى الفقرات السابقة موجه - كما نرى - لرؤساء وقضاة وأنبياء إسرائيل، وقد تمت تولية هؤلاء فى مناصبهم العامة لخدمة الشعب، لكنهم عوضاً عن ذلك يسيئون استخدام سلطاتهم، وينهبون الناس أنفسهم الذين يُفترض أن يحموهم. فقادة الأمة - كما يراهم ميخا - ليسوا شرفاء، فهم يسعون إلى بناء مدينة مزدهرة على حساب المساكين.

خطاب ميخا السابق، يكشف فساد قادة إسرائيل السياسيين والروحيين والدينيين جميعاً، فهم يهدفون إلى تحقيق رغبة واحدة هى المال. [2]

١- أو. بوسى، «تفسير سفر عاموس» فى : تفسير الكتاب المقدس، جـ٤/٤١٧.

٢- أ. فرايزر، «تفسير سفر ميخا» فى : تفسير الكتاب المقدس، جـ٤ / ٤٦١.

ومن بين عوامل إفساد القادة : كانت الرشوة، تلك الآفة التى نهى عنها شرع الخروج، وحذر منها الأنبياء، ولكن هيهات هيهات، فقد تمكنت من المجتمع بشتى طوائفه وفئاته، وأصبحت سمة من سمات الشخصية الإسرائيلية فى مختلف مراحل تاريخها، على نحو ما تشير نصوص العهد القديم.

٣- السلب والنهب

كثيراً ما تقترن المعارك بالسلب والنهب من قبل المنتصرين، ولكن إذا كان السلب هدفاً فى حد ذاته، تحول القائمون به من مقاتلين إلى قراصنة.

إن اغتصاب حقوق الغير لا يمكن بأى حال أن يدرج ضمن «البطولات» أو «الفضائل»، بل على العكس من ذلك، هو مسبة فى جبين الفاعلين له، ووصمة عار فى تاريخهم.

وتاريخ إسرائيل المسطر فى أسفار العهد القديم هو فى مجمله، ومنذ بداياته الأولى، تاريخ سلب ونهب واغتصاب. نعم، هناك أحكام شرعها الرب تأمر برد ما يسلبه الإسرائيلى ويغتصبه ، ولكن هذا إذا كان المسلوب منه هو واحد من الإسرائيليين، وهذا ما يظهر من بيان الرب إلى موسى :

> **«وكلم الرب موسى قائلاً. إذا أخطأ أحد وخان خيانة بالرب وجحد صاحبه وديعة أو أمانة أو مسلوباً أو اغتصب من صاحبه. أو وجد لقطة وجحدها وحلف كاذباً على شئ من كل ما يفعله الإنسان مخطئاً به. فإذا أخطأ وأذنب يرد المسلوب الذى سلبه أو المغتصب الذى اغتصبه أو الوديعة التى أودعت عنده أو اللقطة التى وجدها. أو كل ما حلف عليه كاذباً. يعوضه برأسه ويزيد عليه خُمسه. إلى الذى هو له يدفعه يوم ذبيحة إثمه. ويأتى إلى الرب ذبيحة لإثمة**

كبشاً صحيحاً من الغنم بتقويمك ذبيحة إثم إلى الكاهن. فيكفر عنه الكاهن أمام الرب فيصفح عنه فى الشئ من كل ما فعله مذنباً به». (لاوين ٦/١- ٧)

تلك الأحكام والعقوبات الخاصة بالسلب، إنما ترتبط بالمسلوب منه، وهو فى الفقرات السابقة «الصاحب»، أما غير «الصاحب» من الأجانب والأغيار فلا تسرى عليهم هذه الأحكام، وإلا لكان علي إسرائيل أن ترد كل ما تملك للملاك الشرعيين.

ويبدو أن «عقدة النقص» [1] الكامنة فى الشخصية الإسرائيلية، كانت الدافع وراء مثل هذا السلوك، فالتاريخ الإسرائيلى يشهد بتجوال بنى إسرائيل دون أن يكون لهم أملاك ثابتة، وكانوا فى معظم فتراتهم رعاة جياعاً يحلمون بالتملك وعقدة النقص تدفع صاحبها للعدوان، رغبة فى السيطرة والاستيلاء.

عندما ذبح أبناء يعقوب حمور وشكيم وجميع رجال مدينتهم، قالوا : لأن اختهم قد تنجست لمضاجعة شكيم لها، وعدوا مذبحتهم هذه انتقاماً للشرف. لكن ماذا بعد الانتقام والثأر ؟

«ثم أتى بنو يعقوب على القتلى ونهبوا المدينة لأنهم نجسوا اختهم. غنمهم وبقرهم وحميرهم وكل ما فى المدينة وما فى الحقل أخذوه. وسبوا ونهبوا كل ثروتهم وكل أطفالهم ونساءهم وكل ما فى البيوت». (تكوين ٢٧/٣٤ - ٢٩)

ومع أن فرعون مصر قد اضهد قوم موسى - إلا أنه على ما يبدو من النصوص - كان المصريون ينظرون إلى الإسرائيليين نظرة مختلفة. فالعلاقات بين الجانبين قد بلغت مبلغاً من الود، انعكس فى إعارة المصريين أمتعتهم وفضتهم وذهبهم وثيابهم للإسرائيليين حين تذرعوا باحتفال لهم، وطلبوا هذه الأشياء.

١- انظر : مصطفى فهمى، الشخصية فى سوائها وانحرافها، مرجع سبق ذكره، ص ٦٦.

ولكن عـقـدة النقص أبت إلا أن تظهـر فى سلوك الإسـرائيليين، ليـردوا الحـسـنات بالسيئات، وذلك ديدن اللئيم.

«وأعطى نعمـة لهذا الشعب فى عيون المصريين. فيكون حينما تمضون أنكم لا تمضون فارغين. بل تطلب كل امرأة من جارتها ومن نزيلة بيتها أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثياباً وتضعونها على بنيكم وبناتكم فتسلبون المصريين». (خروج ٣/٢١ - ٢٢)

«وأعطى الرب نعمـة للشعب فى عيون المصريين حتى أعاروهم. فسلبوا المصريين». (خروج ١٢/٢٦)

ويبدو أنه ليس ثمة غرابة فيما حدث، لأن السلب والنهب قد تم بتوجيه وتخطيط من الرب على نحو ما نجد فى النصوص.

ومع أن هناك أوامر عديدة من الرب، بتحريم وإبادة الأمم الأخرى وعدم الإبقاء على كل ما فى مدنهم، إلا أن «عقدة النقص» تأبى إلا أن تظهر وقت وجود «المغريات» من ممتلكات الشعوب الأخرى المقهورة :

«فخرج سيحون للقائنا هو وجميع قومه للحرب إلى ياهص. فدفعه الرب إلهنا أمامنا فضربناه وبنيه وجميع قومه. وأخذنا كل مدنه فى ذلك الوقت وحرمنا من كل مدينة الرجال والنساء والأطفال. لم نُبق شارداً. لكن البهائم نهبناها لأنفسنا وغنيمة المدن التى أخذناها. من عروعير التى على حافة وادى أرنون والمدينة التى فى الوادى إلى جلعاد لم تكن قرية قد امتنعت علينا. الجميع دفعه الرب إلهنا أمامنا». (تثنية ٢/٣٢- ٣٦)

«ستون مدينة .... فحرمناها كما فعلنا بسيحون ملك حشبون محرمين كل مدينة الرجال والنساء والأطفال. لكن كل البهائم وغنيمة المدن نهبناها لأنفسنا». (تثنية ٣/٤ - ٧)

وشمشون «الجبار» ، لم يكن بطلاً وحسب، بل كان سالباً وناهباً بدعم وتأييد من الرب :

«وحل عليه (شمشون) روح الرب فنزل إلى أشقلون وقتل منهم ثلاثين رجلاً وأخذ سلبهم وأعطى الحلل لمظهرى الأحجية». (قضاة ١٤/١٩)

وكم نهب الإسرائيليون من الفلسطينيين فى عهد شاول :

«وقال شاول لننزل وراء الفلسطينيين ليلاً وننهبهم إلى ضوء الصباح ولا نبق منهم أحداً. فقالوا افعل كل ما يحسن فى عينيك». (صموئيل أول ١٤/٣٦)

«ثم رجع بنو إسرائيل من الاحتماء وراء الفلسطينيين ونهبوا محلتهم». (صموئيل أول ١٧/٣)

وواصل الإسرائيليون نهب وسلب الفلسطينيين فى عهد داود :

«وأما هو (داود) فأقام وضرب الفلسطينيين حتى كلت يده ولصقت يده بالسيف وصنع الرب خلاصاً عظيماً فى ذلك اليوم ورجع الشعب وراءه للنهب». (صموئيل الثانى ٢٣/١٠)

ولم يسلم الآراميون - كذلك - من السلب والنهب :

«فقاموا (الآراميون) وهربوا فى العشاء وتركوا خيامهم وخيلهم وحميرهم المحلة كما هى وهربوا لأجل نجاة أنفسهم. وجاء هؤلاء البُرص إلى آخر المحلة ودخلوا خيمة واحدة فأكلوا وشربوا وحملوا منها فضة وثيابا وقفوا وطمروها. ثم رجعوا ودخلوا خيمة أخرى وحملوا منها ومضوا وطمروا». (ملوك ثان ٧/٧ - ٩)

«فخرج الشعب ونهبوا محلة الأراميين. فكانت كيلة الدقيق بشاكل وكيلتا الشعير بشاكل حسب كلام الرب». (ملوك ثانى ١٦/٧)

والهاجريون ومن حولهم، تعرضوا لحملات بعض بنى إسرائيل من الغازين والسالبين والناهبين :

«بنو رأوبين والجاديون ونصف سبط منسى من بنى البأس ..... وعملوا حرباً مع الهاجريين ويطور ونافيش ونوداب. فانتصروا عليهم .... ونهبوا ماشيتهم جمالهم خمسين ألفاً وغنماً مئتين وخمسين ألفاً وحميراً ألفين وسبوا أناساً مئة ألف». (أخبار الأيام الأول ١٨/٥ - ٢١)

ولم يدع بنو يهوذا فرصة استغلال المعارك التى دارت بين بنى عمون وموآب، وجاءوا بجحافلهم لنهب الجثث وسلبها :

«ولما جاء يهوذا إلى المرقب فى البرية تطلعوا نحو الجمهور وإذا هم جثث ساقطة على الأرض ولم ينفلت أحد. فأتى شافاط وشعبه لنهب أموالهم فوجدوا بينهم أموالاً وجثثاً وأمتعة ثمينة بكثرة فأخذوها لأنفسهم حتى لم يقدروا أن يحملوها وكانوا ثلاثة أيام ينهبون الغنيمة لأنها كانت كثيرة. وفى اليوم الرابع اجتمعوا فى وادى بركة لأنهم هناك باركوا الرب ... » (أخبار الأيام الثانى ٢٠/٢٤ - ٢٦)

وإن لم يجد الإسرائيليون عدواً يسلبونه وينهبونه، فلا بأس أن يمارسوا نهجهم وسلوكهم فى مدن إخوانهم :

«وأما الرجال الغزاة الذين أرجعهم أمصيا عن الذهاب معه إلى القتال فاقتحموا مدن يهوذا من السامرة إلى بيت حورون وضربوا منهم ثلاثة آلاف ونهبوا نهباً كثيراً». (أخبار الأيام الثانى٢٥/١٣٣)

ويبشر إشعياء شعبه بنبوءة النهب والسلب لبنى المشرق، إذ يبدو أن هذا أيضاً من مهام النبوة عند بنى إسرائيل :

«ويكون فى ذلك اليوم أن السيد يعيد يده ثانية ليقتنى بقية شعبه التى بقيت من أشور ومن مصر ..... ويرفع راية للأمم ويجمع منفيى إسرائيل ويضم مشتتى يهوذا من أربعة أطراف الأرض ... أفرايم لا يحسد يهوذا ويهوذا لا يضايق أفرايم. وينقضان على أكتاف الفلسطينيين غرباً وينهبون بنى المشرق معاً». (إشعياء ١١/١١- ١٤)

لكن النبى إرمياء، يحارب الاغتصاب الإسرائيلى الذى عده ضمن رذائل قومه كسفك الدماء والظلم :

«لأن عينيك وقلبك ليست إلا على خطفك وعلى الدم الزكى لتسفكه وعلى الاغتصاب والظلم لتعملهما». (إرمياء ٢٢/١٧)

وهذه العبارة الموجزة تشير إلى «اعتياد» الاغتصاب، واتخاذه سلوكاً ومنهجاً لدى إسرائيل.

كما أشار هوشع إلى منهج أفرايم وسلوكه المشين فى عبارة موجزة توحى لنا بحجم عمليات السلب والاغتصاب التى كان يقوم بها :

«أفرايم راعى الريح، وتابع الريح الشرقية. كل يوم يكثر الكذب والاغتصاب...». (هوشع ١٢/١)

وتكفى تلك النماذج التى سقناها منذ بداية تاريخ إسرائيل وحتى مرحلة متقدمة من زمن الأنبياء المتأخرين، وعلى المستويين الفردى والجماعى، كى ندرك أن السلب والنهب والاغتصاب قد أصبح سلوكاً ومنهجاً لازم الشخصية الإسرائيلية خلال مراحل تاريخها، وكما أثبتته لنا نصوص الأسفار المقدسة.

الخاتمة

في إطار محاولة موضوعية لفهم الآخر، واسترشاداً بنظريات علم النفس ومعطياته، واعتماداً على نصوص مقدسة يؤمن بها أتباعها إيماناً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، كانت هذه المحاولة لاستكشاف أبعاد الشخصية الإسرائيلية كما صورتها أسفار العهد القديم.

فالمنطلق إذن في هذه الدراسة كان من خلال اعتمادنا على ما تقره الدراسات النفسية في دراسة الشخصية من جانب، وما تقدمه لنا أسفار العهد القديم من تفاصيل تاريخية لدقائق الأمور وعظيمها فيما يتعلق بالشخصية الإسرائيلية منذ ظهورها على المسرح الإنساني، وحتى كتابة هذه الأسفار.

وإذا علمنا أن هذه المادة التاريخية تشمل أكثر من ألف وخمسمائة عام من حياة هذه الشخصية، أمكننا الوقوف على مدى أهمية ما تقدمه لنا من خصائص لها.

إن معالجة قضايا الحاضر، والإعداد لمتغيرات المستقبل، عمليتان لا تنفصلان عن الغوص في أعماق الماضي، فالحياة الإنسانية حلقات متصلة، ودرجات كدرجات السلم، تقود كل واحدة إلى الأخرى.

ومن هنا، فإن دراسة الشخصية الإسرائيلية في ماضيها، يفتح لنا سبل الفهم الصحيح للتعامل الواعي معها في الحاضر، مما ينعكس بدوره على مستقبل الأمة بأسرها.

وقد اتضحت لنا من خلال هذه الدراسة مجموعة من الثوابت في هذه الشخصية يمكن إجمالها على النحو التالي :

أولاً : فيما يتعلق بالسلوك الديني - أخص جوانب السلوك فى الشخصية بوجه عام - اتسمت الشخصية الإسرائيلية بتشربها للشرك والكفر على مدى تاريخها، مع أن جوهر قيامها، وموجب استمراريتها، ينبع فى الأساس من ضرورة الإيمان بالإله الواحد.

كما يبدو معلم آخر من معالم هذه الشخصية فى هذا المجال، يتمثل فى عصيان الأنبياء وقتلهم، مع الإشارة إلى سمة خاصة بالإسرائيليين دون سائر أصحاب الديانات الأخرى، ألا وهى كثرة أنبيائهم، هذه الكثرة التى تعكس بدورها طبيعة هذه الشخصية فى المروق والعصيان.

وإذا كانت الشخصية الإسرائيلية قد فرطت في جانب الرب، وجانب الأنبياء، وهما يمثلان عند هذه الشخصية مفخرة لها حيث تزعم أنها هى أول الموحدين، وهادية الأمم والشعوب، فلنا بعد ذلك أن نتوقع كل ما يمكن أن ينتج من خلل واعوجاج من قبلها.

ثانياً : فيما يتعلق بالأخلاق الفردية لهذه الشخصية، وهذه الأخلاق من الطبيعى أن تتعدى آثارها «الأنا» لتلحق بـ«الآخر»، وجدناها قد احتضنت مجموعة من الصفات التى يأباها صاحب الفطرة القويمة السوية، من هذه الصفات التى أوردتها لنا نصوص أسفار العهد القديم : النفاق، الكذب، الخيانة والغدر، الزنا، إغراء النساء، الخداع، الجبن، الاستهزاء والسخرية، العنصرية، القتل وسفك الدماء، الإفساد فى الأرض.

ثالثاً : فى مجال العلاقات المباشرة مع «الآخر» برزت علامات راسخة واضحة فى تكوين الشخصية الإسرائيلية وسلوكها تجاه الآخرين، أبرز هذه العلامات : الحماقة والغباء ، العناد ، العداوة والخصام ، الوشاية ، عدم الحياء ، السب، الفسق.

وما من شك فى أن لكل شخصية من الشخصيات البشرية جانباً من هذه الصفات السلبية لكن أن تتجمع هذه المعالم وتتحد فى شخصية واحدة، فالأمر خطير.

رابعاً : فيما يتعلق بالعلاقات المالية للشخصية الإسرائيلية، فقد برز عشقها للمال مهما كانت وسائله، كالرشوة التى احترفتها نوعيات الشخصية المتعددة، ناهيك عن السلب والنهب.

وإذا كانت هذه الدراسة قد قدمت لنا هذه المكونات للشخصية الإسرائيلية من خلال نصوص يؤمن بها العالم الغربى إيماناً يقينياً لا يقبل الجدل، فمن باب أولى، عليهم الإقرار بما جاء فيها فيما يتعلق بهذه الشخصية.

أما فيما يخصنا نحن المتعاملين طوعاً أو كرهاً مع الشخصية الإسرائيلية فى عصرنا الراهن، فإذا تشككنا فيما توصلت إليه الدراسة من نتائج، فلا علينا أكثر من مقارنتها بالحال، ليس على مستوى علاقاتها معنا وحسب، بل على مستوى علاقاتها مع العالم بأسره.

أعتقد أن هذا هو المعيار الذى يمكن أن نحكّمه فى صدق هذه النتائج من عدمه.

فإذا كانت صادقة، فينبغى علينا إعداد أنفسنا للتعامل معها وفق مكونات هذه الشخصية على نحو ما أسلفنا.

أما إذا كانت غير صادقة ينبغى علينا - وعلى الآخرين أيضاً - إعادة النظر فى مصداقية هذه النصوص.

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

أولاً : العربيـــة :

إبراهيم على سالم،

النفاق والمنافقون، دار الشعب، القاهرة، ١٩٦٩.

أحمد عزت راجح،

أصول علم النفس، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٥.

حسن ظاظا،

الشخصية الإسرائيلية، دار القلم، دمشق، ١٩٩٠

دافلسن، فرنسيس (إعداد)،

تفسير الكتاب المقدس، دار منشورات النفير، بيروت، ط٢، ١٩٨٦.

رشاد عبد الله الشامى،

الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية، عالم المعرفة (١٠٢)، الكويت، ١٩٨٦.

الشخصية اليهودية فى أدب إحسان عبد القدس، كتاب الهلال، العدد (٤٩٦)، القاهرة، ١٩٩٢.

رمسيس عوض،

صورة اليهودى فى الأدب الإنجليزى، كتاب الهلال، العدد (٥٧٩)، القاهرة، ١٩٩٩.

سبينوزا، باروخ،

رسالة فى اللاهوت والسياسة، ترجمة حسن حنفى، مراجعة فؤاد زكريا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧١.

سناء عبد اللطيف صبرى،

ملامح الشخصية اليهودية وطبائعها كما تصورها فكاهاتهم، دار القلم، دمشق، ١٩٩٩.

سيد عبد الحميد مرسى،

الشخصية السوية، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٨٥.

شفيق مقار،

الجنس فى التوراة وسائر العهد القديم، دار يعرب للنشر والتوزيع، دمشق، ١٩٩٩.

صلاح مخيمر،

المفاهيم والمفاتيح فى علم النفس، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨١.

عبد المنعم الحفنى،

الموسوعة النفسية، مكتبة مدبولى، القاهرة، ١٩٩٥.

فوزى إبراهيم الحاج،

صورة اليهودى فى المسرح العربى فى مصر، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب- جامعة عين شمس، القاهرة، ١٩٨٨.

قدرى حفنى،

الإسرائيليون، من هم، دراسة نفسية، مكتبة مدبولى، القاهرة، ١٩٨٨.

كريليفكو، كورشونوفا،

ماهى الشخصية ؟، دار التقدم، موسكو، ١٩٩٠.

كمال أحمد عون،

اليهود من كتابهم المقدس، الشعب، القاهرة، د.ت.

مارتن لوثر،

نفاق اليهود، ترجمة عجاج نويهض، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٤.

محمد بسيونى عبد الفتاح،

الشخصية اليهودية عند كتاب الرواية والمسرحية فى مصر، رسالة، ماجستير غير منشورة، كلية الآداب - جامعة طنطا، ١٩٩٥.

محمد جلاء إدريس،

العقيدة : أصولها التاريخية وأسسها الإسلامية، الجيزة، ١٩٩٢.

الشخصية اليهودية : دراسة أدبية مقارنة، عين للبحوث والدراسات، الجيزة، ١٩٩٤.

محمد خليفة حسن،

ظاهرة النبوة الإسرائيلية، دار الزهراء للنشر، القاهرة، ١٩٩١.

مراد كامل،

إسرائيل فى التوراة والانجيل، دار المعرفة، القاهرة، ط٢، ١٩٦٧.

مصطفى فهمى،

الشخصية فى سوائها وانحرافها، مكتبة مصر، القاهرة، د.ت.

علم النفس الإكلينيكى، مكتبة مصر، القاهرة، ١٩٦٧.

موفق محادين،

دورة الدين اليهودى، دار الكنوز الأدبية، بيروت، ١٩٩٧.

ناشد حنا،

إشعياء مفصلاً آية آية، القاهرة، ١٩٨٢.

ثانيا : الإنجليزية :

Cattel, R.,

Personality : A Systematic Theoretical and Factual Study, New York, 1950.

Fisch, H., The Dual Image : The Figure of The Jew in English and American Literature, London, 1971.

Hertz, J., (Translator).

The Pentateuch and Halftorah, Hebrew Tet, London, 1938.

Montagu, F.,

The Jew in The Literature of England, Philadelphia, 1939.

Nell, w.,

The Bible Story, London, 1974.

Niditch, S.,

War in the Hebrew Bible, N. Y, Oxford, 1993.

Oesterley, W., & Robinson, T.,

Hebrew Religion : Its Origen and Development, London, 1944.

Silbermann, A., (Ed.)

Pentateuch with Rashi'p Commentary, Translated into Englih, London, 1930.

Smith, R.,

The Prophets of Jsrael, London, 1897.

ثالثاً: العبريـــة:

إهارون يعقوب جرينبرج،

عيطورى توراه، تل أبيب، ١٩٦٧.

أ.ش. هرطوم،

سيفرى هامقرا، تل أبيب، ١٩٦٣.

دافيد سجيف،

قاموس عبرى - عربى، نيويورك، ١٩٨٥.



رقم الإيداع بدار الكتب

٢٠٠٤/١٠٤٤٠

الترقيم الدولى I.S.B.N

977-241-591-7

الطباعة وتصميم الغلاف

دار المصطفى للنشر والتوزيع

٠١٢٣٧٥١٨٤٥